صُبَارَةُ

صبارة

الكاتب: عماد غانم

رقم الإيداع: 19727 / 2018

ISBN: 978-977-798-147-7

دار الحلم للنشر والتوزيع والترجمة ©

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

E-mail: dar_el7elm@hotmail com

info.darel7elm@Gmail com

Tel: 00242216335 - Mob: 00201141824562

Sales Manager Mob :*00201146644959*

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الوارده في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضروره عن آراء الدار، كما أن جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صوره كانت إلا بموجب موافقه خطية من الناشر..

صَبَّارة

الكاتب
عماد غانم

الحلم
للنشر والتوزيع

ولادة

في بيت ريفي بسيط، وفي يوم شتوي قارص.

الأمطار تهطل بغزارة تكاد تهدّم البيوت الطينية على رؤوس أصحابها البائسين.

وبرد قارص لم تهب الحياة لسكان البلدة شيئا يدفعه عنهم.

إلا قليلا من الملابس البسيطة، وقليلا من الأغطية المهترئة.

أم رحمة مرتمية في حجرة من حجرتي البيت الاثنتين.

مرتمية وحولها بعض من النسوة الأقارب، يحاولن جاهدات معها لتضع مولودها الجديد.

والد رحمة في دهليز المنزل ينتظر الخبر.

لطالما حدثته نفسه بالولد.

وكلما حدثته نفسه، وفي كل مرة، تضع له امرأته بنتا، حتى اجتمع له من البنات أربع.

ود الرجل أن يرزق هذه المرة بالولد، الذي يبقي نسله وذكره بعد موته وفنائه.

ينتظر لحظة أن تخرج عليه إحداهن مبشرة، ويخاف أن تكون مبشرة بالبنت مثل كل مرة.

أم رحمة تصرخ من شدة الألم.

وفي صرختها تصيح (يا رب).

يعلم الجميع من حولها أنها تنادي الله ليس من أجل أن يخفف عنها ألم الوضع، ولكن من أجل أن يرزقها هذه المرة بالولد، رغبة في إرضاء زوجها اللاهث من أجل هذه اللحظة.

والتي تخشى أن يُكسر قلبه كما كُسر من قبل كثيرا.

وتخشى من بعد هذا أن يذهب للزواج من أخرى إن هو أيقن أنها أرض لا تنبت إلا بناتا.

لم يكن قد وصل إلى سمع هؤلاء أن العلم قد قال كلمته.

وأن تحديد نوع المولود هو من بعد إرادة الله وتقديره متوقف على ماء الرجل لا على ماء المرأة.

لم يكن العلم قد أسمع كلمته لهؤلاء البائسين.

مع أن المرأة العربية قديما كانت قد علمت ذلك وأنشدته.

يوم أن عاب عليها زوجها أنها لا تنجب إلا البنات.

فأنشدته قائلة:

ونحن كالأرض لزارعينا

ننبت ما هم يزرعون فينا

يسمع الزوج صرخة المولود من وراء باب الحجرة.

يخفق قلبه بشدة خوفا وأملا، توشك إحداهن أن تخرج عليه.

تخرج معزية: رزقك الله برحمة، رحمة من الله لك ولزوجتك.

ينكسر الرجل كعادته، يلملم حزنه ويأسه.

لكنه يلملم ما يستعصي على اللمّ

ويخفي ما يستحيل على الإخفاء.

يدخل بعدها على زوجته و في عيونه حزن وحنق.

وفي عيونها إشفاق عليه وإشفاق منه.

تحدثه بصوت يخنقه الحزن والخوف:

(لا تحزن يا أبا..... خيرها في غيرها، إن شاء الله يأتي الولد في المرة القادمة).

وبنبرة قاطعة حاسمة غليظة يقول:

(لا قادمة ولا ذاهبة).

في كل مرة يقول مثل هذا الكلام ويقف مثل هذا الموقف.

غير أنه يعود بعد أن يعود من صدمته.

يعود إلى الرجاء في الولد، فتعاود امرأته الحمل، وتعاود الوضع، لتأتي بنت أخرى.

وهكذا..

أم رحمة امرأة ريفية كادحة كالحة.

كادحة كالحة مع زوجها الكادح الكالح في بيئتها الكادحة الكالحة وأهلها الكادحين الكالحين.

وكأن وجه الحياة الكالح لم يخلق إلا لأمثال هؤلاء.

فما رأوا الوجه الآخر للحياة على مدار أعمارهم.

حتى كادوا يظنون أن للحياة وجها واحدا، هو ذلك الوجه الذي عرفوه ولم يعرفوا غيره.

يخرج والد رحمة في كل صباح إلى حقله.

يخرج مصطحبا معه جاموسته الوحيدة وحماره الوحيد.

يخرج إلى حقله ذي السبعة قراريط من الأرض لا غير.

يربط جاموسته على رأس أرضه، ويترك حماره الوفي واقفا هناك، ثم ينزل إلى زرعه، ليجمع طعاما لهما.

لا يعرف الرجل في حياته غير ذلك.

وبالحصر..

لا يعرف الرجل في حياته غير زوجته وبناته وجاموسته وحماره وقراريطه السبعة.

والولد الذي يريده وينتظره.

رأس ماله الوحيد قراريطه السبعة وهذه الجاموسة الوحيدة، التي ينتظر منها اللبن والزبد والجبن.

ينتظره ليأكل منه ويبيع.

لتمضي حياته على هذا الشكل، حياة فقر مدقع وبؤس شديد.

الغريب أن يتغنى المغنون بحياة القرويين، ويصورونها حياة الهناء والسعادة.

ويعللون ذلك بأن بساطتها وسذاجتها هي سبب هنائها وسعادتها.

ألا ما أكذب هؤلاء وما أغباهم.

فمتى كان الفقر سببا للسعادة.

ومتى كان الجهل سببا للسعادة.

ومتى كان المرض سببا للسعادة.

ومعروف أن حياة القرويين هي المصطلح الأصولي الجامع لهذه المصطلحات الفرعية الثلاثة (الفقر_ الجهل _ المرض).

الحضريون يشتهون حياة القرويين.

ولكنهم يشتهونها زائرين لا مقيمين، وهذا هو السر.

يذهب الحضريون إلى القرى زائرين، مستمتعين بحقولها الخضراء وهوائها العليل النظيف وأطعمتها المختلفة.

ثم لا يلبثون فيها إلا قليلا، فيأتيهم الضجر، ولا يجدون فيها منفذ ترفيه ولهو.

من السهل جدا أن يذهب القروي إلى المدينة ليعيش فيها ويقيم، بل إن الكثيرين من القرويين يشتاقون لذلك ويسعون إليه ويحصلون عليه، ولكنه

من الصعب جدا أن يقبل الحضري أن يذهب إلى القرية مقيما، وهي صعوبة تقترب من درجة المستحيل.

كذب كل من يغني لحياة القرويين، كذبوا ولو صدقوا لعاشوها، وكيف لهم أن يرضوا بحياة الفقر والجهل والمرض.

هي حياة كتبت على هؤلاء.

أولئك الذين لم يروا من الحياة إلا وجها واحدا.

وجها للبؤس والشقاء والعوز.

حتى أنهم ظنوا أن لا وجه آخر لها.

والد رحمة وأم رحمة من هؤلاء.

قوم لا يمر على شفاههم الابتسام فضلا عن الضحك.

وقد اجتمع عليهم مع كل ما اجتمع غياب الولد.

وغياب الولد قاصمة تقصم ظهر الرجال .

وكدر يكدر وجوه النساء.

وقد جبل الله البشر جميعا على حب الولد الذكر.

وهذه الجبلة متأصلة في المجتمعات الريفية أكثر.

فهي مجتمعات تظهر فيها العصبية العائلية كأشد ما يكون.

عصبية تستلزم معها حب إنجاب الذكور تقوية لشوكة العائلة وتكثيرا لسوادها.

ومن قبل هذا وذاك حفظا لأسماء الرجال وذكراهم من أن يطويها النسيان بعد موتهم إن هم لم ينجبوا إلا الإناث.

بعدما يطعم والد رحمه جاموسته وحماره كل صباح.

يجلس على رأس حقله، بجانبهما، ويخرج من منديله الكبير بعض اللقيمات وقطع الجبن، ثم يأكل بلا رغبة ولا شهية.

ليصنع بعد ذلك شايه على نار موقدة ببعض قطع الخشب والعشب.

لا شهية مطلقا تدفع والد رحمه إلى طعام.

وقد فقد شهيته من جانبين، جانب طعامه الذي لا يسيل لعاب ناظريه، ولا يتغير ليرغب فيه. إنه الطعام الدائم الوحيد، العيش والجبن.

أما عن اللحوم، فلا يراها الرجل ولا أهل بيته أياما وأسابيع وشهورا.

والرجل إلى جانب حال طعامه هذا، هو رجل عليل النفس حزين منكسر، كسره الفقر والعوز وغياب الولد.

ولا شهية لعليلي النفوس المنكسرين.

يعود الرجل إلى منزله في نهاية كل يوم.

عندما يهل المساء، يعود إلى داره كما ذهب، حزينا منكسرا.

يمر في ذهابه وعودته بأناس مثله، حالتهم كحالته.

ولا خلاف إلا في قليل من الشكليات والتفاصيل داخل الإطار الواحد والحالة والواحدة.

يمر والد رحمة عليهم، فيلقي سلامه الخافت، فيردون عليه بمثل خفوته أو أشد.

لا شهية للحياة عند كل هؤلاء ولا حماسة فيها.

إنهم أشبه بمن سيقوا إلى شيء لا يرغبون فيه.

لا دواء لهؤلاء إلا الصبر، والصبر مر حنظل.

غير أنهم قد عودوا أنفسهم على مذاقه.

يعود والد رحمة إلى داره في آخر كل نهار.

يعود بوجه حزين إلى وجوه حزينة.

تقدم له زوجته عشاءه، صورة مكررة من غدائه وفطوره.

يمد الرجل يده ليمضغ بعض لقيماته وكأنه يمضغ علقما.

تعد له امرأته شايه، وتجلس بجانبه.

بناته من حوله، ينظر إليهن ويمد نظره، يفكر في مصير هؤلاء البنات، كيف سيستطيع أن يقوم على أمرهن وهو لا يملك شيئا. وكيف سيستطيع من بعد ذلك أن يزوجهن، وبأي شئ ساعتها سيجهزهن.

مِرار على مِرار، هكذا يرى حاله وحالهن.

آه لو رزقني الله ولدا

يقول في نفسه وهو ينظر إليهن..

لو رزقني الله الولد..

لكان عونا لي على تربية هؤلاء البائسات

لو رزقني الله ولدا لكان وكان...

آآآآآآآآآآآآآآآآه

يخرج نفسا ملتهبا، تعلم زوجته بماذا يحدّث هذا النفس.

تقول:

هون عليك يا أبا رحمة

أصبحت تناديه بأبي رحمه منذ أن رزقهما الله بها.

فقد رأت في اسم رحمة أحب أسماء بناتها وأرجاها.

تقبّل والد رحمة اسمه الجديد.

لا فارق لديه، فكلهن بنات، ولا فرق عند التكني بالبنات بين اسم وغيره.

تقول امرأته:

هون عليك يا أبا رحمة

لا تيأس من رحمة الله

احمد الله على ما رزقك به

وربك عنده الكثير.

ينظر إليها نظرة عميقة ولا يرد عليها.

تكمل حديثها:

الذي رزقك خمسا من البنات قادر على أن يرزقك الولد

والذي ضيّق عليك قادر على أن يوسع في القريب

والحمد له على كل حال.

ينظر إليها ولا ينطق ببنت شفه.

تكمل:

غيرنا يا أبا رحمة على نفس حالنا وأشد

ولا يدعوهم حالهم إلى يأس أو سخط.

هنا نظر إليها الرجل مُغضبا

قال:

ومن أدراك أنهم غير يائسين وغير ساخطين.

قالت:

فرق كبير بين الحزن والسخط

نعم، هم مثلنا في الحزن، لكن السخط مهلكة لنا ولهم

وأملهم كأملنا يجب أن لا ينقطع

وانقطاعه باليأس هو النهاية البائسة لكل قصة.

والد رحمة وأمها من بسطاء الناس وجاهليهم.

إذا ما أردنا بالجهل هنا الجهل المقابل لعلم الدراسة والورقة والقلم.

ولكن من غير هذا البعد، هم عقلاء حكماء.

علمتهم الحياة كثيرا، علما لا تعلمه الكتب ولا الأقلام.

علما يجعلهم ينطقون في كثير من الأحيان كأعلم الناس وأحكمهم.

تكمل أم رحمة موجهة حديثها لزوجها:

أنا على أمل كبير يا أبا رحمة أن يرزقنا الله الولد في المرة القادمة.

قال الرجل قاطعا كما صنع في حوار سابق يوم ميلاد رحمة

قلت لك: لا قادمة ولا ذاهبة.

تقول أم رحمة والدموع تغالب كلامها

يا أبا رحمة..

رغبتي في الولد لا تقل عن رغبتك، وأملي فيه كبير، فلا تقتل أملي...

أرجوك.

ينظر الرجل إليها، والإشفاق يبدو في نظرته

يقول: هوني عليك

يفعل الله ما يشاء.

تكفكف أم رحمة دموعها، وتبتسم ابتسامة مصطنعة، وتنظر إليه وتقول:

إن شاء الله سيأتينا يوسف في المرة القادمة

لقد رأيت ذلك في منامي

إن شاء الله هو القادم.

في كل مرة تقول مثل هذا الكلام

وفي كل مرة يعرف الرجل أنها كاذبة، تكذب عليه وعلى نفسها، تكذب لدرجة أنها تصدق كذبها.

وبرغم أن الرجل يعرف ذلك.

إلا أنه يستسلم لحديثها في كل مرة، ويذهب معها في خيالاتها الكاذبة، ويؤمّل كما تؤمّل.

تقوم المرأة وهي تمسح أثر دموعها.

سأعد لك كوبا آخر من الشاي.

تأتيه بعد قليل به، وهي تحمل بيدها الأخرى ابنتها الرضيعة رحمة.

تجلس إلى جواره

تضع رحمة على حجرها، وتمضي في إرضاعها

والرجل يشرب شايه وينظر إليهما.

يشرد بعقله بعيدا

أترى سيأتيه يوسف حقا

أترى سيخرجه الله يوما من وجعه هذا ومن فقره ذاك.

عندما يشتد الظلام تقوم أم رحمة للنوم، ولحمل بناتها واحدة تلو الأخرى إلى مكان نومهن.

أغطية مهترئة بالية يضعونها أسفل منهن ومثلها يضعونها فوقهن، البنات الخمس وأمهن وأبوهن في الجانب المقابل من الحجرة على مثل فراشهن ومثل حالهن.

تغرق البنات في نوم عميق.

تجلس أمهن بجانبهن تفكر.

تنظر إليهن دامعة: (أي مصير ينتظر هؤلاء البائسات؟).

وفي الجانب المقابل زوجها يجلس كجلستها ويفكر كتفكيرها وينظر إلى ما تنظر إليه ويسأل في نفسه ذات سؤالها: (أي مصير ينتظر هؤلاء البائسات؟).

همّ المرأة كهم الرجل غير أنها يزيد عليها همّ إرضائه والتخفيف عنه .

في هذا المشهد الحزين الصامت

تنظر المرأة إلى زوجها في ركنه القريب

وتهم أن تذهب إلى جانبه لتهبه من نفسها ما يدفع عنه الحزن ولو للحظات، وما يساعدهما على نسيان ما هما فيه، ورغبة في الولد كذلك.

الرجل لم يقربها منذ ما يقارب الثلاثة أشهر.

دافعها إلى الذهاب إليه ليس الرغبة أو الشهوة، ولكنه محاولاتها الدائمة لإرضائه والتخفيف عنه.

تقوم المرأة وتجلس إلى جواره

ليس فيها كثير مما يرغّب الرجال في النساء.

جسدها نحيل جاف، لم تطعم المرأة منذ سنين ما يساعد جسدها على الاكتناز والليونة.

لونها قمحي غامق، وأنوثتها غائرة، وهندامها أسود مهتريء، ورائحتها رائحة من لا تعرف المنظفات جسدها فضلا عن الروائح والعطور.

وزوجها على نفس حالها أو أشد.

والفرق بينهما أن المرأة تظل امرأة مهما كانت.

فيها شيء من الأنوثة مهما ذبلت، وشيء من الرغبة مهما زُهدت.

تجلس إلى جواره، وتربت بيدها على كتفيه، معزية له على الحال، ودافعة له إلى شيء من الرغبة.

ينظر الرجل إليها بعيون بقيت فيها بقية دمع قريب

يمسك بيديها ويرسلها، ويقوم بدوره بالتربيت على كتفيها، ويمسح بيديه بقية دموعها القريبة.

يعتذر إليها برفق لا شهية ولا رغبة.

تقوم المرأة صامتة حزينة إلى فراشها

تنزل إلى غطائها وتلتف به متجهة بوجهها إلى الجهة الأخرى غير المقابلة له.

وتنهمر الدموع من عينيها.

ينظر الرجل إليها نظرة أخيرة، ثم يلتف بلحافه متجها بوجهه إلى غير جهتها، وينهمر الدمع من عينيه.

يخيم الصمت الحزين على المشهد.

فقراء بائسون

في حجرتهم القديمة

فوق فُرُشهم البالية

تحت أغطيتهم المهترئة

قلوبهم منكسرة

ودموعهم سيالة

الظلام يلفهم

والرجاء معلق بهم

غير أنه بعيد بعيد

تفنى الأعمار دونه

الموت أقرب لهم منه

لم يخلقوا لبلوغ آمالهم

بل إن قصتهم هي قصة الواقع الحسير

والأمل المستحيل.

يقوم والد رحمة من نومه كعادته في صباحه الباكر

يصلي الرجل الصبح في المسجد

ثم يعود إلى بيته ليركب حماره ويسوق جاموسته إلى حقله.

يعود من المنزل ليجد امرأته قد استيقظت بدورها

لتبدأ هي الأخرى رحلتها اليومية مع الحياة

رحلة الكد الدائم والمقابل الشحيح.

لما عاد الرجل كانت أم رحمة ما تزال جالسة على فراش الصلاة تسبح وتدعو.

لا دعاء لها إلا بما تتمناه هي وزوجها ليل نهار.

يستمع الرجل إلى نهايات هذا الدعاء

حيث كانت تدعو بصوت مسموع

ظنا منها وهي المرأة البسيطة الأمية، أن في الجهر بدعائها مدعاة إلى سماعه أكثر من قبل الله، ومدعاة كذلك إلى استجلاب رحمات الله التي تستعجل إجاباته.

يقف الرجل مصغيا لها إلى أن تنتهي

وهو يؤمّن على دعائها بلسان حاله ومقاله.

تنتهي المرأة وتهم بالقيام

فترى زوجها واقفا لم ينته بعد من تأمينه.

تنظر إليه نظرة حانية شفوقة

وهو يبادلها النظرة مع مزيد من الإشفاق والحنو.

على غير العادة يكون والد رحمة في هذا المشهد أكثر حنوا وشفقة من زوجته

هكذا يبدو المشهد دائما، أم رحمة بعاطفتها الأنثوية تفيض على زوجها بالحنان والحب والتعزية، لعلها تزيح عن قلبه قليلا من الهم الثقيل الذي جثم عليه.

دائما هو الحزين المنكسر، وهي المعزية والحزينة المنكسرة في الآن ذاته.

دائما هو اليائس الشاكي، وهي الباعثة على الأمل الدافعة لليأس والقنوط.

مع أنها في الحقيقة مثله، أقرب إلى اليأس من الأمل.

لكن هذا المشهد الأخير حمل الجديد.

والد رحمة يبدو في نظرته أكثر حنوا وأكثر تعزية

ووجهه أكثر بشرا وسماحة.

أم رحمة تلحظ ذلك

حتى أنها تقول له مستبشرة

_ خيرا يا أبا رحمه

ينظر الرجل إليها مبتسما

_خيرا بإذن الله

ثم يدخل إلى شأنه، ويأخذ بهائمه ويخرج.

تودعه أم رحمة بنظرة راجية

_اللهم اجعله خيرا.

يخرج الرجل إلى حقله على عادته في الخروج وعلى غير عادته في الحال. في داخله شيء غريب لم يفصح عنه، لكنه ظاهر على وجهه إذا أمعن الناظر النظر.

هل رأى الرجل شيئا في منامه كان الباعث على تغير حاله؟.

يجلس بعد أن ينتهي من عمله اليومي في إطعام جاموسته وحماره، يجلس ليطعم طعامه ويشرب شايه على رأس حقله مثل كل يوم.

بعد أن ينتهي، يتكئ بظهره على حائط بالٍ خلفه، وينظر إلى السماء، وعلى شفاهه ابتسامة صغيرة.

الرجل على حال لم تُعهد عنه منذ سنوات.

للبشر قوة إدراكية مرتبطة بسراديب الغيب تنبئهم في بعض الأحيان بما سيحدث لهم وبما سيكون أو تشير إليه.

وكلما شفّت الأرواح وتعالت عن الدنايا والسفاسف كان هذا الارتباط وثيقا، وكان هذا الفيض الغيبي أكثر وأعمق.

أبو رحمة في حالة اتصال بذلك الغيب منذ أن صلى الصبح في هذا اليوم.

نظرته لأم رحمة وهي تدعو لم تكن نظرة عادية مثل أي نظرة، وتأمينه خلفها لم يكن كأي تأمين.

ثم كانت نظرته الأخيرة إليها نظرة فيها الكثير، وتنبيء بالكثير.

لم تكن نظراته عادية، ولم يكن حنوه عاديا.

ولهذا ودعته أم رحمه بقولها (اللهم اجعله خيرا)

وظلت تردد هذا الدعاء بعد مغادرته.

والد رحمة يتكئ على الحائط خلف ظهره وينظر إلى السماء وعلى شفاهه ابتسامة صغيرة.

يستمر نظره للسماء طويلا، وتستمر ابتسامته كذلك.

كأنه تسمر أو تحنّط على حاله.

يمر المارون إلى حقولهم، فيلقون بسلامهم عليه، فلا يرد عليهم .

ولا ينتبهون إلى عدم رده للسلام.

ومن ينتبه منهم يقول:

لعله لم يسمع، أو لعله غارق في بحار التفكير في شيء ما .

بقي الرجل على حاله هذه ساعة لا يحرك ساكنا ولا تفارق الابتسامة شفاهه.

يمر به أخوه، وهو جاره في الحقل.

يمر فيسلم، فلا يسمع من أخيه ردا.

ينزل من على حماره، ويهم إلى أخيه مناديا:

ما لك يا أبا رحمة، إلى هذا الحد من التفكير، أنت لم تنتبه إلى مجيئي وسلامي .

وأبو رحمة لا يرد ولا يتحرك ولا يغير من ابتسامته.

يقول أخوه:

يبدو أنك غارق في خيال جميل، وابتسامتك تنبيء عن حالك وخيالك .

والرجل لا يتحرك ولا يرد.

يقول أخوه وقد بادر بالجلوس بجانبه:

ما لك يا رجل، حدثنا بما تفكر فيه لنفرح مثلك.

لا يتحرك الرجل ولا ينزل بصره من السماء.

يرتاب أخوه في الأمر

يهم إليه بيده محركا

فلا يتحرك الرجل ولا يغير من حاله

يهزه أخوه بقوة

ينقلب أبو رحمة على جانبه

وعينه معلقة بالسماء

والابتسامة على شفتيه ودمعة عجيبة تنحدر من عينه

يصرخ أخوه باكيا (مات أخي، مات أخي) .

أم رحمة تمضي يومها ككل يوم تمضيه

منهمكة في عملها اليومي، غير أن لسانها في ذلك اليوم لم يتوقف عن ترديد (اللهم اجعله خيرا).

صورة أبي رحمة وهو يودعها على غير عادته لم تفارق خيالها.

أهل الهموم والشقاء في هذه الدنيا يعتادون على همهم وشقائهم تعودا يصل إلى درجة أنهم إذا ما وجدوا بادرة لتغير الحال وجسوا وخافوا.

وهذا ما يجعل الواحد منهم إذا ما غلبه الضحك والابتسام يوما يستعيذ بالله من الشيطان ويقول (اللهم اجعله خيرا)،

والقلق حينها يملأ قلبه وروحه.

تسمع أم رحمة جلبة على أعتاب بيتها

ينقبض قلبها انقباضا كبيرا

تهرع إلى الخارج وهي تردد بلا وعي

(اللهم اجعله خيرا، اللهم اجعله خيرا).

على عتبات البيت أهل وجيران ينزلون أبا رحمة من على حماره جثة هامدة.

تنظر إليهم أم رحمة صامتة.

ينظر إليها الناس مشفقين، وهم يهمون بحمل أبي رحمة إلى داخل البيت.

أم رحمة تنظر إلى وجه زوجها الميت الباسم

ولا دمعة واحدة تنحدر من عينيها.

لم تنزل عينيها عن عينيه.

إذا كانت الدموع قد جعلها الله تنفيثا عن الحزن والصدمة.

فإن أشد الصدمات هي التي تحجّر الدموع في العيون فلا تنزلها.

نزول الدموع دليل على حزن كبير

وتحجرها في بعض الأحيان دليل على حزن أكبر.

(الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون)

يردد القاريء هذه الآية في المأتم المنصوب خارج المنزل.

وأم رحمة ترددها من ورائه وهي جالسة في وسط المنزل وقد غلبتها دموعها بعد فترة من الصدمة والذهول.

تجلس بين نسوة متشحات بالسواد.

السواد يلف المكان كله

الكون كله سواد في عيون أم رحمة

قلبها أسود مفطور

ووجهها أسود محزون ولباسها أسود قاتم

وكذلك لباس النسوة من حولها.

السواد هو لون حياتها الوحيد منذ بدايتها .

لم تر غير السواد، ولم تعرف غيره.

النسوة تعزيها، فلا يتردد على لسانها إلا قولها (الحمد لله).

وكأنها تخشى إن غفلت للحظة عن ترديد الحمد أن تغرق في بحار الاعتراض والسخط.

ليس لها في هذه الدنيا إلا إيمان بالله يهوّن شيئا من وقع الخطوب عليها.

إيمان بالله يعطيها قدرا من الصبر والرضا طمعا فيما عند الله من جزاء للصابرين الراضين.

في وسط النسوة تجلس أم رحمة وفي حجرها صغيرتها الرضيعة. ومن حولها تعزي النساء أم رحمة بلسانها

وتعزي بناتها بعيون مشفقات دامعات

(من لهؤلاء البنات من بعد أبيهن

وكيف ستستطيع أمهن أن ترعاهن في ظل هذا الفقر والعوز.

هن بنات همهن عظيم

والخوف عليهن من الزمان وغدراته خوف كبير.

ليس لهن ولا لأمهن من بعد أبيهن إلا الله).

هكذا تقول النسوة بألسنتهن وفي أنفسهن.

أم رحمة في سباتها العميق

بعيون دامعة، ولسان لا يردد إلا (الحمد لله).

يداها يد تلف بها على جسد الصغيرة الرضيعة

ويد أخرى تحتضن بها بين الحين والحين بنتا من بناتها الملتصقات بها، أو تمسح بها على رؤوسهن وظهورهن.

والدموع في عيونهن جميعا.

و الحزن والصدمة مرسومان على الوجوه.

* * *

عم البنات

تمضي الحياة بأم رحمة وبناتها بطيئة متثاقلة كأن النهار كله نهار واحد والليل كله ليل واحد.

يأتي الليل فستغيث بالنهار منه ومن وسواسه وأفكاره وسكونه المخيف ودموعه السيالة.

ويأتي النهار فتستغيث بالليل منه ومن ضجيجه وحاجاته وعوزه وضيق اليد عنه.

تنام أم رحمة وعينها على ركن زوجها وفراشه الذي كان ينام فيه. لم تنقل فراشه من مكانه ولم تقدر على ذلك.

في هذا الفراش كان ينام زوجها وحبيبها ورفيق دربها.

الحب شيء كبير، وأكبر منه العشرة والرفقة.

إن ما بين الأزواج والزوجات شيء أكبر من الحب،

إنه الرفقة والعشرة، رفقة الحياة والمصلحة والمصير، رفقة الفرح والحزن، رفقة الجبر والانكسار.

إن الحب الذي تصنعه الرفقة والعشرة أعظم بكثير من ذلك الحب العارض الذي لم يعش أبناؤه رفقة تجمعهم وعشرة تصهرهم.

إن الحب من غير عشرة ورفقة حب زائف كاذب.

تنام أم رحمة ودموعها على خديها في كل ليلة وعينها على فراش زوجها.

ثم تستيقظ في كل نهار وعينها لا تزال على فراشه.

تقوم من النوم لتصلي الصبح،

ترفع يديها بالدعاء والبكاء بعد الصلاة،

تنظر إلى الباب،

الآن كان يدخل زوجها عند عودته من المسجد بعد صلاة الصبح.

الآن تدرك كم كانت قيمة دخوله عليها.

الآن تدرك كم كانت قيمته في الحياة.

الآن، الآن.....

ولماذا الآن؟!

لقد كانت أم رحمة تدرك قيمة زوجها وهو معها.

معرفتها بقيمته وقدره لم تزد في غيابه عن حضوره.

الرجل بالنسبة للمرأة شيء عظيم.

المرأة بالنسبة للرجل سكن يسكن إليه

أما الرجل فهو للمرأة سكن تسكن إليه وسند تستند عليه،

أمان خوفها ورجاء أملها، هو بالمجمل كل شيء بالنسبة لها.

لقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(إن الرجل ليقع من امرأته موقعا عظيما).

لقد قالها النبي صلى الله عليه وسلم حين شاهد امرأة تصرخ وتولول لما أخبروها بموت زوجها.

وكانوا قد أخبروها قبلها بموت أبيها وأخيها فما زادت على البكاء.

لأبيها وأخيها كان البكاء

ولزوجها كان الصراخ وكانت الولولة.

للزوج عند المرأة مكانة لا يقاربه فيها أب ولا أخ.

ولذلك كان فقد أم رحمة لزوجها فقدا عظيما.

والحال التي هي عليها هي وبناتها جعلت هذا الفقد أعظم وأشد، وجعلت الحزن عليه أعمق وأثقل.

كم ترجو الآن أن لو بقي أبو رحمة معها

يوقظها كما كان يوقظها في كل صباح

يخرج بهائمه كما كان يخرج في كل يوم وهو يسلم عليها،

فترد عليه السلام وتودعه بنظراتها الحانية المحبة.

ثم يعود إليها في نهاية كل يوم

فتجلس بجانبه، وتضع له عَشاءه

فيتقاسمان معا اللقمة، ومعها يتقاسمان الهم، ويتقاسمان الأمل.

من يقاسمها الآن من بعده.

الآن همها وهم بناتها لها وحدها.

لا معين ولا أنيس

إلا ربّا، ليس منها إليه إلا الدعاء

ثم الرضا والتسليم

رجاء في ثوابه وجنته

إن هو أمسك عنها الدنيا وما فيها.

حينما تحتضن أم رحمة طفلتها الرضيعة

يذوبان معا في بحار من الحزن والصمت والدموع.

تنظر أم رحمة لطفلتها نظرة الإشفاق والرحمة، وتنظر الطفلة لأمها نظرة تشبه نظرتها، لكأنها نظرة إشفاق ورحمة أيضا.

عجيبة تلك الطفلة التي تنظر كالكبار وتصمت كالكبار، بل وتبكي كالكبار.

من الطبيعي أن يبكي الأطفال الصغار

لكن من غير الطبيعي أن تبكي طفلة بكاء صامتا، دموعا تسيل بلا صوت ولا نحيب.

هذه دموع كدموع الكبار، حينما تحط على ظهورهم وأكتافهم الهموم الكبار.

حينما تحتضن أم رحمة طفلتها الصغيرة

وتنساب دموعهما

وحينما تنظر في عيونها

وتجد منها تلك النظرة المماثلة

تمضي أم رحمة في الغناء لها.....ولها

بنيتي الحبيبة

مات أبوك الحبيب

ومضى بنا النحيب

نبكيه ولا ننساه

قد كان لنا السندَ

لا نبتغي أحدا

من بعدُ غير الله

فهو الله الرحيم

وخزائن النعيم

تندى بها يداه

إن أبصر الصبرَ

والحمد والشكرَ

من عبده أعطاه

حين كان أبو رحمة حيا، كانت أم رحمة زوجة وأما
فلما مات الرجل، أضحت المرأة أرملة
وأضحت مع ذلك أما وأبا.
هي الآن أب لهؤلاء البنات
لا بد أن تسعى عليهن سعي الآباء، وتحميهن حماية الآباء
وتقود سفينتهن في خضم أمواج الحياة العاتية كما يقود الآباء.
تستيقظ في كل يوم صباحا، توقظ بناتها، تطعمهن.
ثم تمضي إلى الحقل، تركب حمارها، وتسوق من ورائها جاموستها.
كثيرات هن النسوة اللاتي تعملن في الحقول.
كثيرات هن النسوة اللاتي تشاركن أزواجهن العمل هناك، تشاركهن العمل كما تشاركهن الفقر والأمل.
وكثيرات هن النسوة اللاتي تعملن وحدهن من غير زوج.
تلك النسوة اللاتي مات عنهن أزواجهن،
أو تركوا البلدة ساعين من أجل لقمة عيش في المدينة، أو في خارج البلاد.
مشهد المرأة التي تركب حمارا وتسوق جاموسة أو بقرة ليس مشهدا غريبا على هذه القرى.
أصبحت أم رحمة من هؤلاء النسوة.
كم كانت تود أن لو كانت من أولئك اللاتي غاب عنهن أزواجهن للعمل، ثم يعودون بين الحين والحين.

كم كانت تود أن لو كان أبو رحمة حيا

يعاودها كل حين، تملأ ناظريها من رؤيته، وتملأ رئتيها من رائحته، وتملأ جسدها من جسده.

كم كانت تود أن لو ظل حيا، حتى ولو لم يعاودها.

مجرد أن تحس بأنه حي شيء عظيم وكبير.

شيء عظيم وكبير، الآن هي تعلمه، وقد كانت تعلمه من قبل.

تمضي أم رحمة إلى حقلها الصغير.

تربط جاموستها في مكانها وحمارها في مكانه.

تشرع في العمل من أجل إطعام الجاموسة والحمار.

ثم تجلس على رأس الحقل كما كان يجلس زوجها.

لكنها لا تأكل كما كان يأكل، ولا تقدح نارا لتصنع عليها شايا، هي تجلس لتفكر في الحال، وفي بناتها اللاتي تركتهن في المنزل

في كنف أكبرهن.

أكبرهن بنت في سن العاشرة، ما تزال طفلة صغيرة، لكنها الآن ربة المنزل في غياب والدتها.

بين كل بنت من البنات الخمس والتي تليها سنتان.

إلا رحمة، بينها وبين سابقتها أربعة أعوام.

وسر تأخرها تردد والدها في الإنجاب بعد بنته الرابعة مخافة إنجاب بنت

أخرى ويأسا من إنجاب الولد.

غير أنه لم يستطع البقاء يائسا، وقرر بعد تأخير أن ينجب للمرة الخامسة، فكانت رحمة.

لم يشأ الله له إنجاب الولد، الله حكيم، يقدر أموره بحكمة بالغة.

حكمة قد يكون في ظاهرها المنع، لكن الحقيقة أن في باطنها المنح. الدنيا كلها لا تساوي عند الله شيئا، ولا يجب تساوي عند العاقل شيئا. لو منع الله عبدا من عباده كل متاع الدنيا وأعطاه الآخرة فهو لم يمنعه شيئا، ولو أعطى الله عبدا من عباده الدنيا كلها ثم منعه الآخرة فما أعطاه شيئا.

والد رحمة سيأتي يوم القيامة، فيغمسه الله غمسة واحدة في الجنة، ثم يسأله (هل وجدت بؤسا قط).

فيقول الرجل (لا والله).

ولو شاء الولد هناك، فإن الله يعطيه ما يشاء.

يقولون (إن الله يعطي من أراد الولد في الجنة بذرا ثم يأمره أن يبذره في الأرض، فتنبت كل حبة من هذا البذر ولدا، ينمو ويكبر ويشب أمام عينه في لحظتها).

أم رحمة ترجع إلى دارها ظهرا، لا يطاوعها قلبها أن تبقى لنهاية اليوم كما كان يفعل زوجها خوفا على بناتها وتشوقا لهن.

تعود إلى البيت ظهرا، تطعم مع بناتها الغداء، وتقيل معهن في البيت قليلا. حتى إذا أذن العصر، تقوم إلى الصلاة، ثم تنطلق إلى الحقل لتكمل عملها، ولتعود مصطحبة بهائمها في نهاية كل يوم عند غروب الشمس.

يوم مكرر بكل ساعاته ودقائقه ولحظاته، لا تغيّر فيه البتة. تمضي الحياة يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة.

أم رحمة امرأة صغيرة السن، لم يتجاوز عمرها الثلاثين.

وأن تترمل امرأة في الثلاثين من عمرها، ثم تبقى بلا زوج، أمر صعب للغاية، صعب عليها كامرأة، وصعب على مجتمعها من حولها أن يتقبله.

غير أن حال أم رحمة، وكونها أما لبنات خمس، هو ما يجعل الأمر مقبولا.

مقبول أن تغلق المرأة حينها عليها بابها وتشد عليها جلبابها، لتمضي في حاجة بناتها، ولا زوج ولا رجل.

إلا أن الأخ الأكبر لوالد رحمة، وهو الأخ الوحيد له، رأى في الأمر رأيا آخر.

هو رجل صالح غير أنه غليظ قليلا.

يختلف عن والد رحمة في ذلك.

فوالد رحمة كان رجلا هينا لينا، وهكذا الأرحام تلد وتلد.

حقل والد رحمة وحقل أخيه متجاوران.

يأتي الرجل إلى حقله يوما، فيجد أم رحمة جالسة صامتة شاردة كحالها دائما.

يسلم الرجل، وينزل من على حماره، ثم يهم بالجلوس إلى جوارها. تعتدل أم رحمة في جلستها، وتشد عليها ثيابها أكثر وتتطلع إليه ببصرها منتظرة حديثه الذي يشرع في بدايته.

يقول الرجل

_ كيفك يا أم رحمة

فترد المرأة

...الحمد لله على كل أمره

_ ونعم بالله

كيف هي الحياة معكم

وكيف هن البنات.

... الحمد لله

هن بخير.

يبتسم الرجل ابتسامة صغيرة

_ عجيب هو حالكم

كيف تتسمون بأصغر بناتكم.

ترد المرأة مصطنعة ابتسامة

... تسمينا باسم أصغرهن رغبة في رحمة الله ورجاء في أن تشملنا.

_ رحمة الله على أخي، قد طاوعك في هذا الأمر.

... قد كان يرجو ما أرجو، ويتعلق بما أتعلق به.

_ لقد أدركته رحمة الله حقا، فغادر دنيا الشقاء والعنت إلى رحمة الله وجواره.

تدمع عيون المرأة

... وتركني أنا وحيدة

_ لست وحيدة ولن تكوني

أنا والد بناتك، وأبنائي إخوانهن.

...هذا رجاؤنا.

_ أحب أن أحدثك في أمر يا أم رحمة.

... تفضل.

_لا يعجبني مكوثكن وحدكن من غير رجل

وخصوصا أن لا ولد معكن، ننتظر أن يشب ليقوم مقام الرجل فيكن.

بدأت المرأة في الاندهاش والاستغراب.

واستطرد الرجل في حديثه.

_ أنت تعرفين الحياة وما فيها من طمع وطامعين

ووجود الرجل للمرأة هو حماية وسند

وخصوصا إذا ما اجتمع للمرأة بنات خمس.

أنا والد بناتك وسأظل لكن شأني يشغلني كثيرا عنك وعنهن ولا أستطيع أن أدخل عليكن إلا قليلا وأدخل عليكن دخول الرجل على أرملة أخيه دخولا خجولا لا بد يا أم رحمة أن يكون لهذا الأمر حل قاطع.

تنظر أم رحمة إليه مندهشة ولا تتكلم.

يكمل الرجل

_ يا أم رحمة

أنت تعلمين كم كان حبي لأخي عليه رحمة الله

ومن أجل حبي له

أطلب منك الآن الزواج سترة لك ولبناتك، وسندا لك ولهن.

تنهمر الدموع من عيون المرأة وهي تسمع ذلك الحديث.

ما كانت تتخيل أبدا أن يحادثها أخو زوجها في أمر كهذا.

لقد كانت المرأة تحب زوجها حبا لا يستقيم معه أن تتزوج غيره حال وفاته، حتى ولو لم يكن لها بنات.

فكيف ومعها منه خمس من البنات.

تخفض المرأة رأسها دامعة صامتة.

تهم بالقيام والذهاب.

يبادرها الرجل

_ أعرف أن الأمر صعب عليك

لكنها الضرورة الواجبة

فكري في الأمر جيدا يا أم رحمة

إن لم يكن من أجلك فمن أجل بناتك

لن تجدي الراحة إلا بذلك

ولن تجد بناتك الراحة إلا بذلك

ولن أجد أنا الراحة في أمركن إلا بذلك.

تركب أم رحمة حمارها وتمضي إلى بيتها

وعيون الرجل معلقة بها

ثم يشرع الرجل في البكاء

متذكرا أخيه.

تعود أم رحمة إلى بيتها والدموع في عينيها

تسائلها بناتها: ما لك يا أماه.

تتطلع في وجوههن صامتة، ثم تجيب (لا شيء)

تنزوي في جانب من البيت، وتشد عليها ملابسها

وتشرع في بكاء طويل، تحاول أن تخبئه عن بناتها.

لكنهن يرونها، ويعلمن أن خطبا كبيرا أحزنها.

تأتي البنات إلى جوارها، وتلتصقن بها

وتشرعن في البكاء أيضا، ويتكرر المشهد الأشهر في قصة هذا البيت من بعد

موت الزوج والوالد.

أرملة بائسة حزينة باكية

بجوارها بناتها الخمس

وهن على مثل حالها

بائسات حزينات باكيات

يبدو أن القدر قد كتب عليهن ذلك

الحزن والبكاء

والرجاء في السماء

الرجاء الذي لا ينقطع

فلا المرجو يغيب

ولا الحال يتغير

ولا إيمانهن ينقطع

حتى ولو انقطعت حياتهن.

لهن الثواب على كل حال

إما ثواب وإجابة

وإما ثواب وكفى

يوم يجعله الله لهن في آخرتهن

باتت أم رحمة ليلتها شاردة، تفكر في الأمر.

وقد تخطت مرحلة الذهول والصدمة، وهي الآن بصدد التفكير فيما عرضه الرجل عليها.

(يستحيل أن أوافق على هذا)

تقول وهي تدمع

(لكن بناتي تحتاج إلى والد، وهذا عمهن، وهو أولى الناس بهن)

تقول ردا على نفسها

ثم تستطرد

(وأنا أيضا بحاجة لرجل يقطع عني عيون الناس وألسنتهم)

لكنها سرعان ما تفيق

(لكن كيف أجعل لي رفيقا غير أبي رحمة

كيف أقبل أن أهب نفسي لأحد من بعده)

تنهمر الدموع:

إن قبولي بالزواج من بعده هو نهاية عهدي به.

فالمرأة لآخر زوج لها، وأنا لا أقبل إلا أن أعيش على ذكرى أبي رحمة، حتى نلتقي في جنة الله.

وبناتي ! يا لبناتي.

لست أدري الآن هل الأفضل لهن أن لا أتزوج من بعد أبيهن، وأن أعيش لهن أما وأبا.

أم أن الأفضل لهن أن أجعل من عمهن أبا جديدا لهن يستندن عليه ويلجأن إليه.

فهو رجل وأنا امرأة، والمرأة مهما حاولت فلن تسد مسدا كان يسده الرجل.

الحيرة تكاد تقتلها كمدا، لم تكن تتخيل أن يعرض عليها أخو زوجها ذلك.

ولما أن عرضه عليها، لم تكن تتخيل أن تفكر فيه ولو للحظة واحدة.

وهي الآن تفكر فيه بكل كيانها، تفكر ولا تستطيع أن تجد لها مخرجا من هذا التفكير.

تبيت ليلتها شاردة حزينة باكية.

يأتيها زوجها في المنام

تراه وضاء الوجه مبتسما

تهم بالحديث معه في شأن ما كلمها فيه أخوه

ينقبض الرجل عن الابتسام

ثم يصمت هنيهة، ثم يعاود ابتسامه

غير أنها ابتسامة أصغر من سابقتها.

تنتظر المرأة منه أن يقطع لها الأمر بالكلام

لكنه لا يتكلم، ولم يزد على ابتسامته.

يهم بالمغادرة، فتبادره بالكلام لتعلم منه لكنها لا تستطيع، ينحبس صوتها، وهو يغادر مبتسما كما أتى.

تستيقظ المرأة من نومها

وقد ازدادت حيرتها وازداد همها:

هل كانت ابتسامة أبي رحمة ابتسامة الرضا والقبول

أم كانت ابتسامة الراجي فيها أن تظل على العهد وأن لا تقطع ما بينهما

آه يا أبا رحمة

لماذا لم تجزم لي، كنت أنتظر رأيك، تركتني على حيرة أكبر مما أتيتني عليها

ماذا كنت تريد أن تقول؟ يا الله لطفا بي.

تقوم أم رحمة إلى يومها كعادتها، تحمل على همومها هما أكبر. تذهب إلى حقلها، تسير بلا عقل، عقلها محبوس في التفكير في الأمر.

يراها أخو زوجها، يبادرها بالحديث، فتسرع من أمامه

ويستمر الحال هكذا لأيام.

يتطلع الرجل إلى محادثتها

وتهرب هي دائما

فلا هي وصلت لرأي، ولا هو انقطع رجاؤه

حتى أتى اليوم الذي اتخذت أم رحمة فيه قرارها.

خرجت أم رحمة إلى الحقل كعادتها.

وكان عليها في ذلك اليوم أن تسقي زرعها.

وعليها أن تمر على كل قطعة من الأرض لترى إن كان الماء قد وصلها أم لا.

ولأن تدفق الماء ضعيف، فإنها كغيرها من الفلاحين تقوم بتهيئة تربة الأرض أمام الماء حتى يسير سريعا.

فتخفض عاليها وتسوي جوانبها، ولأنها تسير بين المياه، فقد كان لزاما عليها أن ترفع أسفل ملابسها حتى لا يلحقها الماء.

ومضت المرأة على حالها هذا مدة من الوقت

ثم كانت المفاجأة.

لما أن التفتت المرأة يمينا إذا بجار لها في الحقل يتلصص عليها، وهو رجل فوق الأربعين من عمره.

لم تكن تتخيل أم رحمة أن توضع في هذا الموضع.

ولم تكن تتخيل أن يحدث ذلك من جارها الذي لم يكن معروفا عنه أنه من رجال السوء والسفه.

لم تكن المشكلة الكبرى في تلصص الرجل واستراقه النظرات.

لكنها كانت في أنه لما أن التفتت إليه، أشاح بوجهه بعيدا، ثم ما لبث أن عاد بوجهه مرة أخرى،

وعاود تطلعه فيها، ولكن بعينين مكشوفتين.

أُسقط في يد المرأة وهي تلحظ ذلك من جارها بطرف عينيها بين الحين والحين.

الرجل لا يترك مكانه ولا يدير وجهه عنها.

والمرأة لا تستطيع أن تترك مكانها حتى يكتمل ريّ الأرض.

تجلس بين الحين والحين خجلة تتستر من عينيه.

ثم لا تلبث أن تقوم لشأنها.

وهو متسمر في مكانه، وعيونه تزداد اتساعا، وفمه كذلك.

لم تكن أم رحمة بهذا القدر من الأنوثة التي تستدعي من رجل كل هذا التحفز للغريزة فيها.

هي امرأة من أبسط النساء وجها وجسدا.

ما الذي يرغّبه فيها إلى هذه الدرجة.

ولماذا الآن؟.

تسأل أم رحمة نفسها مذهولة خائفة.

تتحسب في نفسها لما يمكن أن يقدم عليه .

فنظرته لم تعد طبيعية، وكذلك حاله في وقفته وتأهبه.

أتُرى يقدم على حماقة أكبر مما هو فيها الآن من حماقة.

هو رجل لم يعهد عليه سفه.

لكنه الآن قد رمى بنفسه في غياهب السفه كله.

لماذا الآن؟.

هذا هو السؤال الذي ألح على أم رحمة بقوة.

تقول بلسان حالها:

ما أنا بالمرأة التي تُسيل لعاب رجل إلى هذا الحد

ولم يكن حالي حين رفعت أسفل ثوبي بالداعي لذلك

وما ظهر من جسدي حينها ليس سوى سيقان نحيفة باهتة.

إذن، لماذا الآن؟.

تنظر كل حين وحين بطرف عينيها إليه.

تراه ما يزال على حاله متلصصا متأهبا.

تلحظ أنه بدأ يزداد تأهبا.

الخوف يتملكها.

لكنها تدفعه بقولها:

(لا تصل حماقته لما أتخيله).

حاله يزداد إخافة.

يبدأ في التحرك خطوة خطوة ناحيتها.

يتحرك حينا ويقف حينا.

لا تدري المرأة ماذا تفعل.

تفكر في ترك المكان مسرعة.

يقترب منها خطوة بعد خطوة.

المرأة مرتبكة لا تدري يمينها من شمالها.

تنظر له

تقع عيناها في عينيه

وكأنها تسأله منكرة

ماذا تريد؟.

يحدّ هو من نظرته إليها

تخبر عينه بما لم يخبر لسانه

يستمر تلاقي العينين حينا

دار في هذا الحين كثير من الكلام الصامت.

توقن الآن بمراده

وقد وصل إلى حالة من الإقدام على أمر لا تراجع عنه.

تعرف هي ذلك.

فلا ترى خلاصا لها إلا بالهروب من أمامه قبل وصوله إليها.

يهم هو بالوثب عليها

تهم هي بالهروب مسرعة.

يأتيها في هذا الوقت صوت من أطراف الحقل.

يناديها أخو زوجها

(يا أم رحمة)

تسرع المرأة في الرد عليه

نعم أنا هنا.

وكأن نجدة من السماء قد أتتها

تكرر المرأة ردها

نعم أنا هنا... أنا هنا

وهي تسير مسرعة ناحية الصوت.

يلملم الرجل شهوته وخيبته

ويهم مسرعا ناحية حقله

مبتعدا عنها.

تسرع أم رحمة حتى تأتي أخا زوجها

تأتيه بوجه شاحب خائف

يسائلها: ما لك يا أم رحمة، هل من خطب

ترد مرتبكة (لا.... لا).

يرتاب في الأمر: ما لك شاحبة خائفة .

ترد: لا شيء.... لا شيء.

يزداد ارتيابه

ينظر إليها

ثم يسرع إلى داخل الحقل.

ينظر يمنة ويسرة فلا يرى شيئا

غير أنه يلمح ذلك الجار هناك بعيدا وهو يغادر.

يقف شاردا

هل من الممكن أن يكون ما يدور برأسه: لا..... لا

يدفع عن رأسه الوساوس وهو يهم راجعا إلى أم رحمة.

يحادث نفسه بلسان حاله: زوجة أخي من أطهر النساء

وأخشاهن لله، وأبعدهن عن الخطيئة

لا يمكن أن تقدم على مثل هذه الخطايا

ما كانت لتخون زوجها ولا لتخون الله في نفسها.

يعود إليها فيجدها على حالها، واقفة كما هي، تنتظر مجيئه.

تبادره وهي تحاول أن تلملم ارتباكها: ما الذي دفعك لدخول الحقل مسرعا هكذا.

يقف صامتا لهنيهة يتطلع إليها

ثم يقول: أمرك مريب يا أم رحمة، صمتك وشحوبك وارتباكك.

تتماسك في أمرها أكثر وتجيبه : لا شيء مطلقا، كل ما هنالك أني كنت في داخل الحقل أتذكر فراق زوجي، وأفكر في حال بناتي.

يسائلها: ولا شيء غير ذلك

ترد: لا شيء

يقول: أنت عندي مصدقة مؤتمنة يا أم رحمة.

يشد على كلمة مؤتمنة وهو يقولها.

ترد: نعم، وما ينبغي لي أن أكذب، ولا أن...

تتوقف عن تكملة الكلام خجلا.

كلمة مؤتمنة هذه كلمة يرمي بها الرجل لدفع الوساوس التي ألمت برأسه.

وقد همت أم رحمة بأن تجيبه بقولها: ولا أن أخون.

لكنها آثرت في نهاية الحديث أن تتجاهل كلمته

وكأنها لم تسمعها، ولم تنتبه لمراده.

يتوقف هو أيضا عند توقفها عن الإكمال

يسائلها، أكملي.

ترد: معذرة، أنا اليوم في حالة غير طبيعية، الحزن ملك عليّ أمري، وجعلني غير منتبهة ولا منضبطة.

هنا يتجاهل الرجل كل ما حدث.

وقد بدأ في دفع الوساوس عن رأسه، والتعويل على حزنها وتفكيرها في الحال التي هي عليها.

يسائلها: إذن، ماذا في الأمر الذي حدثتك فيه؟.

تصمت وتخفض رأسها.

يكمل: ما عاد الأمر يحتمل أكثر من ذلك يا أم رحمة

لا بد من رأي قاطع لك في المسألة

ولا بد من حسم للأمر الآن.

تصمت قليلا، تتذكر ذلك المشهد الذي انتهى منذ قليل.

وتحادث نفسها:

بدأ الطمع فيّ، ولن تتركني العيون، وسينعق عليّ كل ناعق، وسيرغب فيّ كل سفيه.

يبدو أن زواجي سيكون هو المكروه الذي لا بد منه

وسيدفع الله به مكروها أكبر عني

أو لعلها مكروهات ومكروهات.

تنظر المرأة للرجل

تهم بإجابته بالقبول

غير أن لسانها يجري بقولها (دعني إلى الغد)

جرى لسانها بهذه الكلمة على غير ما كانت تنوي

ثم تكمل: غدا بإذن الله يأتيك جوابي القاطع.

يرد هو: إذن أنتظر إلى الغد بإذن الله، ولعله يكون الخير.

يغادر الرجل إلى حقله المجاور.

تقف المرأة قليلا، ثم تدخل إلى حقلها لتكمل عملها.

تجول بنظرها هنا وهناك

الجار المتلصص غادر المشهد، خوفا من افتضاح أمره.

ولعله الآن يتحسر على ما بدا منه، فهو ليس من أهل السوء والسفه

وقد كان هذا الموقف سقطة منه وهفوة؛ لكنها سقطة من الممكن أن تتكرر

فالمرأة الأرملة مطمع هيّن وخصوصا أنها امرأة ما تزال صغيرة.

إذن فالمشهد من الممكن أن يعود

يعود من هذا الرجل ومن غيره

وإذا كان هذا الرجل من غير السفهاء في العموم

وقد حدث منه ذلك، فكيف بالسفهاء، وماذا سيكون أمرهم.

أفكار وأفكار تدور في رأس المرأة وهي تكمل عملها.

يكاد رأسها ينفجر ودموعها تسيل كالعادة.

كانت المرأة على وشك إجابة أخي زوجها بالموافقة

لكن لسانها انعقد عن هذه الإجابة، وكانت إجابتها الثانية بالإمهال إلى الغد.

تعود المرأة إلى بيتها..

كل تفكيرها أصبح يسير ناحية الموافقة بعد هذا الموقف.

عادت لبناتها، تتطلع إليهن، ترى في عيونهن رفضا لقرارها بالموافقة من قبل أن تخبرهن.

لكنها أصبحت توقن أن قرارها هذا إن هي أقدمت عليه هو لمصلحة بناتها قبل أن يكون لمصلحتها.

جلست بجوار بناتها قبل النوم، همت بالحديث معهن وعرض الأمر عليهن. أكبر بناتها لا تتعدى العشرة أعوام.

تسأل نفسها: هل ستفهم البنات الأمر بكل أبعاده، هل سيدركن كم أصبح احتياجنا لرجل، لا يكون ذلك إلا إذا أخبرتهن بما وقع اليوم. حتى لو أخبرتهن، هن بنات صغيرات، لن يدركن الرابط الكبير بين كوني بلا رجل وبين تطلع العيون إليّ وتطاول السفهاء عليّ. وهل ستدرك البنات كم حاجتهن لرجل يحل في مقام أبيهن.

وهل سيقتنعن بأن ذلك الرجل سيحل حقا محل أبيهن وسيقوم مقامه.

ولعلهن يقلن:

إن عمنا لا يحتاج للزواج منك من أجل أن يكون في محل أبينا، من المفروض أن يكون في محل أبينا منذ وفاته سواء تزوجته أو لم تتزوجيه.
قررت المرأة أن تطرح الأمر لتناقشه مع البنات

تقول:هل نادى عليكن عمكن اليوم.

تقول أكبرهن: نعم نادى، وسألنا عن حالنا، ثم انصرف.

_ منذ كم لم يأتنا ليسأل عنا؟.

... منذ خمسة أيام تقريبا.

_ لقد بدأ يتأخر علينا، ويعاود المرور علينا على فترات متباعدة، وتتباعد أكثر كلما مر الزمن، وستتباعد أكثر وأكثر.

... لماذا؟.

_ ستشغله الدنيا عنا، وهو مجرد عمّ لكُنّ.

هو يحبكن جدا، ويحب أن يكون أبا لكنّ، لكنه يتحرج من المجيء الكثير إلى هنا.

... ولماذا يتحرج؟.

_لأني امرأة أرملة، ولا يجوز للرجل أن يدخل على أرملة كثيرا، إلا أن يكون.....

... إلا أن يكون ماذا؟.

_ إلا أن يتزوجها.

... يتزوجها !

تقولها البنت مندهشة .

تصمت المرأة قليلا ثم تتطلع إلى ابنتها وتكمل الحديث.

_ دخول الرجل على امرأة أرملة لا يصح

ولن تسكت ألسنة الناس عنه ولا عنها.

... لكنه عمنا، وهو في مقام أبينا.

_ هو عمكن أنتن

لكنه بالنسبة لي غريب يجب أن أتستر منه.

... وما معنى هذا؟

هل تمنعينه من الدخول علينا لأجل ذلك.

_ لا لن أمنعه.

لكن الأمر يحتاج إلى حل آخر.

... وما هو؟

_ الحقيقة، عمك قد أدرك الأمر وتفهمه، وكلمني فيه.

وأخبرني أنه لن يستطيع أن يمنع نفسه عن بنات أخيه وعن حاجتهن، وأنه لن يستطيع أن يقوم مقام أبيكن إلا بحل قاطع.

... وما هو؟!

تصمت المرأة قليلا تلملم فيه قوتها وإقدامها ثم تقول.

_ الحل هو أن أتزوج من عمكن.

تنظر البنت بدهشة بالغة ظاهرة على ملامح وجهها، ثم تقول.

... وهل تقبلين؟.

_ أنا لا أقبل بديلا لأبيك ما حييت، ولكن..

تصمت وتتطلع إلى البنات من حولها وهن يشاهدن الحوار بين أمهن وأختهن الكبرى.

ثم تكمل:

_ولكني أقبل من أجلكن.

ثم تشرع في بكاء طويل،

وتبكي ابنتها الكبرى مدركة واعية

وتبكي بقية البنات لبكاء الاثنتين.

بعد بكاء طويل، تنتظر المرأة من ابنتها رأيا، فلا تجيب البنت بشيء، وتقوم إلى فراشها .

تنظر المرأة لابنتها، تمسك لسانها عن أن تسألها رأيها.

البنت تنظر لأمها نظرة أخيرة فيها الكثير من الحزن والتساؤل.

نظرة أصعب بكثير من الكلام مهما كان.

كم ودت المرأة أن تتحدث البنت بما تريد، صمت ابنتها أثقل على نفسها من الجبال.

بعد نظرة أخيرة تنزوي البنت في فراشها بعيدة عن عيون أمها، وتنام دامعة.

وتنزوي المرأة في فراشها دامعة، وعيونها تتطلع لابنتها ولبناتها،

ثم تنام.

يأتيها زوجها في منامها، يأتيها على غير حاله السابق، يأتيها هذه المرة حزينا واجما.

تنظر المرأة إليه خجلة، ثم تطأطيء رأسها.

ثم تتطلع إليه:

هل تعرف ما حدث معي في الحقل

هل تعرف ما فاتحني فيه أخوك

هل أنت حزين مني أم حزين عليّ.

لا تكلمه المرأة بلسانها

لكنها تنظر إليه وفي عيونها كل هذه الأسئلة.

لا يتحدث الرجل مطلقا كما حدث في مرته السابقة

لكنه واجم حزين.

ينظر إليها ولا يغير من هيئته

تعرف المرأة أنه سيتركها من غير جواب

تهم بمناشدته الجواب فلا تستطيع الكلام

يهم الرجل بالمغادرة واجما حزينا كما أتى

ينظر إليها نظرة المودع

ثم يقول (أنتظرك) ثم يغادر.

تقوم المرأة من نومها فزعة

يعلو صوتها بالبكاء والنشيج

ماذا كنت تريد بقولك (أنتظرك)

تتساءل المرأة باكية:

هل كنت تقصد أنني سآتيك قريبا

(سأموت)

لا أعرف حينها أأفرح بلقياك وبراحتي من الدنيا وعنائها

أم أحزن على بناتي اللاتي ستفقدن أمهن بعد أبيهن.

كيف ستعيش البنات بلا أم وبلا أب.

إذا كان فقد الأب بالنسبة للبنت مصيبة، ففقد الأم هو قاصمة الظهر.

البنات الصغيرات من الصعب أن تعشن بلا أب

ويكاد يكون من المستحيل أن تعشن بلا أم.

اليتم الحقيقي للبنات أن تفقدن أمهن في هذا العمر الصغير.

آه يا أبا رحمة، ماذا كنت تقصد.

كيف تنتظرني، أين تنتظرني، متى تنتظرني؟

ولماذا كنت واجما بهذا الشكل.

حزنا عليّ أم حزنا مني

لم تبتسم في هذه المرأة مثل مرتك السابقة لماذا كنت حزينا واجما؟.

حزنا على البنات إن أتيتك وتركتهن.

أم حزنا عليّ للموقف الذي حدث معي مع جار الحقل.

أم حزنا مني لأنني قد تركت نفسي للتفكير في الزواج من أخيك.

هل أحزنك أني فكرت في الأمر

أما تعلم الذي حدث معي ودفعني للتفكير في هذا الأمر

أتدري أنني أصبحت مطمعا

أتدري أنني ما أقدمت على التفكير في الأمر إلا سترا لي ولبناتك

أتدري أنني قد أقدمت على فراقك مكرهة.

والله إنك لأحب رجال الدنيا إليّ

ولن يملأ أحد مكانك أبدا، لكني مرغمة مكرهة.

وأن أكون لغيرك في الآخرة لهو أكره ما أكرهه.

وما كنت أرغب إلا أن نلتقي هناك

بلا فقر ولا ألم ولا وجع.

أعلم أني سأكون لآخر أزواجي في الدنيا

وأني لن أكون معك إن تزوجت

لكني المرغمة المكرهة

عرضي يا أبا رحمة وعرض بناتك.

تصمت المرأة قليلا

ثم تتذكر كلمة زوجها الأخيرة (أنتظرك)

تحدق بعينيها بعيدا، ثم تصيح: نعم لقد فهمت ما تعنيه يا أبا رحمة

أنت تنتظرني لأكون معك هناك في الجنة

أنت تريد ألا أقطع ما بيني وبينك

أنت تريد أن أظل زوجتك ليكون لقاؤنا هناك

أنت ترفض زواجي.

تنفجر المرأة في البكاء

تبتسم قليلا ودموعها تسيل: نعم يا أبا رحمة

سأكون معك، ولن أتزوج

أتحمل ألم الدنيا وخطوبها ولو كنت وحيدة

ما كان لي أن أفكر أبدا في البعد عنك

الله المستعان يا أبا رحمة

الله المستعان.

يأتي الصباح

تهم إلى صلاتها، ثم إلى بناتها توقظهن

تطعمهن، ثم تهم بالخروج لشأنها

تنظر إليهن قبل الخروج

تحتضنهن، وتشد ابنتها الكبرى بقوة إليها

(لا عليك يا ابنتي كأنني ما حدثتك بشيء).

تخرج إلى حقلها

تنتظر أخا زوجها لتقطع معه الأمر.

تلمح من بعيد ذلك الجار المتطاول

تقوم المرأة إليه بقوة

تقترب منه حتى يراها

تنظر إليه نظرة قوية حازمة

وتضغط على أسنانها

ينظر الرجل إليها

يطأطيء رأسه

يسرع مغادرا

تعود المرأة إلى مكانها وفي وجهها شيء من الرضا.

تنتظر أخا زوجها بنفس التحفز والقوة

تلمحه قادما

تتأهب للرد

يأتيها الرجل، يسلم، يسائلها عن قرارها.

تقطع له المرأة بالأمر

: لن أستطيع أن أعاشر رجلا بعد أبي رحمة

وأنت عم للبنات وأب لهن على كل حال

إلا أن تتنصل من ذلك.

يصمت الرجل قليلا

يتطلع إليها آسفا

يرد عليها: أنت وما تريدين يا أم رحمة

والله ما كنت أريد إلا الخير لك وللبنات

وما أقدمت على هذا إلا حبا في أخي ورغبة في القيام بحق أهله عليّ.

أنا والد البنات على كل حال

وأنت زوجة أخي

وبمثابة أخت لي

أمركم هو أمري ما حييت

أسأل الله أن يعينني على القيام بحقكن

الله المستعان، الله المستعان.

يستدرك الرجل

: لكني لاحظت أنك بالأمس كنت أقرب للقبول

واليوم تقطعين بالرفض؟!.

تتطلع المرأة إليه

تحكي له عن ترددها أمس

وتحكي عن حديثها مع البنات

ثم عن رؤياها لأبي رحمة وما كان منه.

يندهش الرجل

يخبرها أنه رأى أخاه على نفس الحال التي رأته عليها.

رآه واجما حزينا ولم يكلمه: لقد كان أخي حزينا مني

هو يحبك ويريد أن لا تفترقا

وقد أحزنه عرضي عليك بالزواج

لكني ما قصدت بذلك إلا الخير.

أما يعلم ذلك، أيظن بي سوءا ولا يعرف نبل قصدي

أم أنه أراد أن يقول لي إن عليّ أن أقوم بحقكن

دون أن أقطع ما بينه وبينك.

لعله أراد ذلك

هنيئا لكما هذا الرباط يا أم رحمة

رباط في الدنيا والآخرة

تصبري على حالك يا امرأة

وشدي عليك حزامك

وهوني على نفسك بموعدك غدا مع زوجك الحبيب

وأنا من بعد الله سأكون لك معينا وسندا.

تنظر أم رحمة إليه مبتسمة

ودمعات تغرورق بها عيونها: نعم الرجل أنت

نعم الرجل أنت

الله المستعان

الله المستعان.

وتمضي الأيام

لا شيء جديد، نهار كالنهار وليل كالليل.

يوم بعد يوم، وشهر بعد شهر، وعام بعد عام.

تمضي المرأة وبناتها فقيرات حزينات وحيدات.

عم رحمة عاهد نفسه أن يقوم مقام أخيه بكل ما يستطيعه

وقد مضى يقوم بدوره على أتم وجه.

لقد أكبرت أم رحمة موقفه معها ومع البنات.

لسان حالها يقول (لولا هذا الرجل بعد الله لكنت وبناتي كالأيتام على موائد اللئام).

وقفة الرجل ردت عن المرأة وعن بناتها العيون وألزمت كل سفيه وكل متطلع للسفاهة حده.

كلما أتى الرجل لبيت أخيه، وكلما مر على زوجة أخيه في الحقل سائلا ومعينا، تنظر له المرأة نظرة الشاكرة.

نظرة إكبار لموقفه، من بعد أن رفضت طلبه في الزواج منها.

هي الآن تدرك أنه لم يكن طامعا في شهوة منها.

وإنما كان راغبا في إكرام أهل أخيه وبناته من بعده، وجعلهن في كنف رجل يقوم على أمرهن.

هو الآن يقوم على أمرهن دون أن يقطع ما بين أخيه وزوجته.

لقد جعل صورة أخيه عندما جاءه في المنام حزينا مغضبا أمام عينيه، يتذكرها ليل نهار.

وقد أيقن أن أخاه أراد أن يعاتبه على ما أقدم عليه، وأنه أراد أن يقول له:

(لا تحتاج إلى أن تتزوج من امرأتي حتى تقوم على شأنها وشأن بناتي).

صورة لا تفارق خياله، ودمعات حنين لأخيه لا تفارق عيونه.

هو رجل يكبر أخاه بعشرة أعوام، قوي البنية، لا يشكو مرضا ولا وجعا.

وكان من عادته إذا دخل بيت أخيه أن لا يجلس ولا يطيل، حرصا على زوجة أخيه الأرملة.

يطرق الباب، فتفتح له إحدى البنات، فيدخل مسلما.

وتقوم له أم رحمة، فيحادثها هي والبنات قليلا، يسألهن عن أحوالهن وعن احتياجاتهن، ثم يمضي لسبيله.

هو رجل فقير، وحاله لا يختلف كثيرا عن حالهن في الحاجة والعوز.

لكنه عاهد نفسه أن لا يقضي لأهله حاجة إلا بعد أن يقضي حاجتهن أولا.

يدخل عليهن يوما.

يقف متحدثا مع أم رحمة وبناتها من حوله.

تقدم أم رحمة في هذا اليوم على غير عادتها على شكره والثناء عليه بأقوى ما تستطيعه من كلام.

يبتسم الرجل ويقول:

عامان منذ وفاة أخي، ولم أسمع منك كلمة مثل هذه.

تنظر المرأة إلى الأرض خجلة وتقول:

يعلم الله أني أشكرك ليل نهار

وما يمنعني عن ذكره لك إلا الحياء

وكيف لا أشكرك وقد صنعت ما صنعت.

_ وما الذي صنعته؟

... لقد صنعت الكثير.

_ وهل تعلمين كل ما صنعته؟

تتطلع إليه المرأة.

... نعم أعلم، وهل غاب عني من صنيعك شيء؟

_ نعم، لقد غاب عنك أكبر صنيعي.

تُدهش المرأة

... وما هو؟

_ لا عليك يا أم رحمة.

... وكيف (لا عليّ)؟! أخبرني

يبتسم الرجل

_ لا عليك، تعلمينه أو لا تعلمينه، لا يهم،

المهم أن الله يعلمه.

... لقد أثرت قلقلي، لا بد أن تخبرني.

_ أما الآن فلا

ولعلي أخبرك به قريبا.

الآن سأمضي.

... لا تمض قبل أن تخبرني

ولا تتركني للّيل وأفكاره.

_ لعلي أستعين بالله وأخبرك غدا.

سلام الله عليكم.

... وعليكم السلام.

تقولها والحيرة تملؤها

تود أن لو تمنعه من الخروج إلا لو أخبرها

لكنها لا تستطيع أن تلح عليه أكثر من ذلك

حياؤها يمنعها

وإصراره واضح على عدم البوح الآن.

تغلق الباب من ورائه

وتعزي نفسها بالغد

تذهب عن رأسها غيابات الأفكار والخيالات

تمنع ذلك الاستغراق في التفكير بعزمها على معرفة الأمر غدا، حتى وإن تمنّع الرجل.

سأعلم منه الخبر في الغد

سأعلم منه الخبر في الغد

تهتف من داخلها بقوة، وهي تحاول أن تسلم عينيها للنوم، بعد طول تفكير.

تجلس على رأس الحقل في الصباح بعدما تقوم على شأن بناتها، ثم شأن بهائمها وزرعها.

تنتظر الرجل متطلعة إلى معرفة الأمر بقوة.

يهل الرجل عليها من بعيد.

تتطلع إليه برأسها.

ينزل الرجل من على حماره؟

يسلم عليها، ثم يجلس مجاورا لها.

يسود الصمت قليلا .

تبدأ المرأة الحديث، تقول: خيرا بإذن الله، ما هو الأمر إذن.

_لا عليك يا أم رحمة، هو أمر هين، دعينا منه.

... لا، لا بد أن تخبرني، لقد أقلقتني.

_لا داعي لقلق، الأمر خاص بي، ولا داعي للبوح به.

... لا يا أبا رحمة

لقد قلت أمس (لقد غاب عنك أكبر صنيعي)

هو صنيع صنعته إذن من أجلي ومن أجل بناتي

ويجب عليك أن تخبرني به

وأنت من وعدتني أمس بإخباري به اليوم.

_ لا، لم أعدك، وإنما أردت إنهاء إلحاحك فقط.

...قد كان لك أن تحتفظ بالأمر لنفسك دون أن تلمح به.

أما وأنك قد ألمحت به، وشغلتني بالتفكير فيه، فيجب عليك أن تزيل عني هذه الحيرة،

ولن يكون ذلك إلا بإخباري.

_ يا أم رحمة... لا عليك.

يقولها الرجل وعيناه في الأرض.

... لا عليك أنت، أخبرني يرحمك الله.

تقولها أم رحمة وهي تنظر إليه، وفي عينيها الحيرة والرجاء.

يرفع الرجل نظره للسماء.

تبصر أم رحمة فيهما شيء من الدمع.

يدفعها كل ذلك للإصرار على المعرفة.

هو خطب كبير، ويبدو ذلك من حال الرجل.

_ يا أم رحمة، لا تثقلي عليّ، رفقا بي.

لا أستطيع أن أحزن أخي في قبره.

..تحزن أخاك، كيف؟

أخبرني.

_ يا أم رحمة، أتذكرين ذلك اليوم الذي جاءك فيه أخي في منامك حزينا وجاءني حزينا في ذات الليلة.

عندما رفضت عرضي للزواج.

وحينها كلمتك عن حزن أخي مني على الرغم من أنني لا أريد زواجك إلا حرصا عليك وعلى بناتك وإرضاء له.

يصمت الرجل قليلا

وتتطلع المرأة إليه منصتة ومنتظرة.

يكمل الرجل:

_ لقد كان حزن أخي مني في محله.

... نعم، ولقد قلنا حينها أن حزنه منك لأجل رغبته في إبقاء ما بيني وبينه . وكأنه يعاتبك ويقول (كن لزوجتي وبناتي من غير أن تقطع ما بيني وبين زوجتي).

_لا يا أم رحمة، لقد كان حزن أخي لما هو أبعد من ذلك، لقد اطلع أخي على خبيئة نفسي.

.. وما هي خبيئة نفسك؟.

ينظر الرجل إليها ثم يهم بالقيام.

تقسم عليه المرأة أن يخبرها وأن يقطع حيرتها.

يقف الرجل ويرسل بصره إلى السماء بعيدا ثم يعود ببصره إلى المرأة ويقول وفي عينيه الكثير:

_الحقيقة أني أحبك يا أم رحمة.

تبعد المرأة بعينيها بعيدا عنه

والرجل معلقة عيونه بها

ويسود صمت طويل.

ثم يشرع الرجل في إكمال حديثه.....

_الحقيقة أني أحبك يا أم رحمة

أحبك وأرغب في الزواج بك منذ أول يوم توفي فيه أخي.

بل إن الحقيقة الأكبر هي أني أحبك وأخي ما يزال حيا بيننا.

كان حبا لا أستطيع دفعه

فهو مما لا نملك له دفعا ولا صدا.

كنت أراك وأرى خلقك ودينك وحسن صنيعك بأخي فأزداد حبا لك، هو حب لم يغادر قلبي، وقد حفظت فيه حرمتك وحق أخي، فلم أتطلع إليك بسوء، ولم أرغب بك بحال يشينني ويشينك ويلطخ ثوب أخي.

يصمت الرجل قليلا لعلها تجيب.

لكنها تبقى على صمتها ونظرها بعيدا عنه.

يكمل الرجل:

_ لما توفي أخي رحمه الله، انفجر ذلك الحب في قلبي، وأصبح نارا تحرق ولا أستطيع إطفاءها.

لقد حاولت كثيرا فلم تُزد محاولاتي النار التي في قلبي إلا اشتعالا وإحراقا.

ولما بادرت بحديثك في أمر الزواج كان الدافع _علم الله _ دافعين، حبي لك ورغبتي في الوصال بك، وحرصا مني على أمرك أنت وبنات أخي ورغبة في القيام بحقكن على أكمل وجه.

لم يكن الأمر رغبة لنفسي فقط، ولكن رغبة نفسي كانت موجودة.

ولما جاءني أخي في المنام وبدا حزينا واجما

علمت حينها أنه حزين للأمرين معا

لإقدامي على الزواج منك، وللشيء الذي في قلبي لك.

لقد كانت عيون أخي حين نظر إلي في المنام مخبرة بهذا.

ما كان لينظر إليّ هذه النظرة لو كان الأمر أمر زواج من أجل ستركن وحفظكن.

لقد علمت ذلك منه حين أتاني لكني لم أستطع إخبارك بالأمر.

ولقد عاهدت نفسي وعاهدتك منذ ذلك الحين على القيام بأمركن من غير زواجي بك.

وعاهدت نفسي أن أجاهد لأدفع عني حبك ورغبتي فيك فلم أستطع.

قدرت على الأولى ولم أقدر على الثانية.

هذا قسمي فيما أملك، ولا أستطيع ما لا أملك.

ولما أن اشتد الأمر بي، ولم أستطع له صرفا

سبق لساني بالبوح به لك

وما كان ينبغي لي ذلك.

يصمت الرجل قليلا لعلها تجيب أو تشاركه الحديث

لكنها ما تزال صامتة مبعدة نظرها عنه.

يكمل الرجل حديثه.....

_أنا لا أحدثك يا أم رحمة الآن من أجل أن تغيري قرارك وتقبلي الزواج بي.

لقد عاهدت نفسي وعاهدتك على أن لا أحزن أخي في هذا الأمر، وأن لا أقطع ما بينك وبينه.

ولو قبلت أنت الآن، فلن أقبل أنا.

لقد حادثتك في الأمر ولا أدري لماذا حادثتك.

ربما أردت أن أبوح لك به لأستريح قليلا

لكن هيهات أن تكون الراحة.

ولا أظن الآن إلا أنني سأزداد نارا على نار بحديثي إليك.

لا أدري لماذا أقدمت على هذا الحديث

ما كان ينبغي لي.

يصمت قليلا ولا جديد من المرأة، ما تزال على حالها.

_ لا عليك يا أم رحمة

كأنك ما سمعت شيئا مني

إنه من الغباء أن أُسمعك هذا

ولا طائل من ورائه

هي لحظة غبية إذن

آسف لأني وضعتك فيها

اعذريني واغفري لي.

وليغفر لي أخي.

ربما يأتي الليلة حزينا غاضبا

سأعتذر له إن جاءني

وأؤكد له أني على العهد

أنا أب لبناته من بعده

وزوجته أخت لي

وأمرهن هو أمري ما حييت.

يمضي الرجل إلى حاله، وتبقى المرأة صامتة لفترة ثم تقوم لحالها وشأنها.

مصدومة ومدهوشة من كلام الرجل

غير أن الأمر لا يعدو عندها الصدمة والدهشة.

ولا سبيل عندها للتفكير في كلامه مطلقا.

هي امرأة تحب زوجها إلى درجة العشق، وما كانت لترضى من بعده بحبيب مهما كان.

لقد فكرت يوما في أن تتزوج من بعد زوجها، لكنها كانت مكرهة لا راضية.

كانت تبحث حينها عن زوج يقطع عيون الناس عنها، ووالد يقوم على شأن بناتها.

ولقد كانت حينها تتقطع من داخلها وتبكي دموعا توشك على الدم، فلما أن جاءها زوجها في منامها حزينا مغضبا، وفهمت من ذلك عدم رضاه.

انشرح صدرها، وركنت إلى حبها، وأقدمت على أمرها.

.... لا زواج من بعد زوجي ولا حب من بعده، والرجاء موصول في الله.

ليس من الوارد عندها أبدا أن تفكر في كلام الرجل، الأمر عندها صدمة ما كانت تتخيلها وكفى.

صدمة تشبه تلك التي صدمتها عندما عرض عليها الزواج من قبل، لكن هذه أشد من تلك.

لقد كان عذره مقبولا في الأولى، فهو عم يبحث عن سترة لبنات أخيه وزوجته.

بل كان هذا مدعاة لإكباره.

وحينها كانت تقطع بأنه ما أقدم على هذا إلا وفاء بحق أخيه.

أما الآن فقد علمت مراده، لقد كان يرغب بها، هذا كل شيء.

... لا، لا أعتقد أن هذا هو كل شيء .

لقد كان يرغب بي، لكنه كان في الوقت ذاته حريصا على بنات أخيه، ولقد أحسن بعد ذلك إذ دفع عن رأسه رغبته وهواه.

... لكن ما دافعه لأن يحدثني الآن ويبوح لي؟

هل يريد مني أن أعيد التفكير في الزواج به، أم ماذا؟.

... لو كان يريد مني ذلك فقد أساء إلى أخيه، كيف له أن يعاود التفكير في ذلك من بعد رؤيته لأخيه في المنام على حاله من الحزن والغضب.

لقد آثر رغبته على رغبة أخيه ومراده على مراد أخيه.

أين حق أخيه عليه.

أم أنه العشق وما يفعله؟.

... ما كنت أتخيل أن يكون في قلبه لي كل هذا

ولم تظهر عليه أي علامات أو أمارات.

كيف له أن يحب زوجة أخيه، تلك خطيئة لا تغتفر.

ولقد ذكر في كلامه أن حبي قد وقع في قلبه وأخوه ما يزال حيا.

أم هو الحب كما يقولون، يأتي على غير قدرة على إبعاده، وهو مما لا يملك الناس فيه دفعا ولا صرفا.

ولقد كان من كرامة الرجل وحسن صنيعه أن لا يظهر منه أي ظاهر يدل على ما بقلبه ناحيتي طيلة حياة أخيه.

لو أكمل إحسانه لما أظهر ذلك من بعد وفاة أخيه.

لعل عذره أنه لم يستطع.

كل ما أريد أن أتيقن منه الآن، هل قصد بحديثه معي وإخباره لي أن أعيد التفكير في أمر الزواج منه.

أم أنه أراد أن يبوح فقط، وهذه كانت نهاية مراده.

لقد قال أنه لم يرد إلا البوح.

لكن كيف أصدقه وقد ادعى من قبل أنه يريد الزواج لسترتنا فقط.

لكنه في نهاية حديثه قطع بأنه لن يقدم على الزواج بي

وما كان له أن يحزن أخاه منه مرة أخرى.

ولقد قطع بأنه لن يقدم على الزواج بي حتى وإن وافقت أنا.

لعله صادق، أو لعله..

على العموم، كأن شيئا لم يحدث

وكأن الأمر لم يكن.

لا رغبة لي في الرجال من بعد زوجي

وما ينبغي لي.

لكن كيف سيكون حالي مع الرجل بعد ما حدث

وبعد أن كشف سره.

حيائي يمنعني من محادثته مرة أخرى

وكيف سيقوم على أمرنا بعد ذلك؟

آآآآآآآه

يا الله.

تمضي المرأة إلى بيتها، تقضي يومها كعادتها.

تنام ليلها وتحاول أن تدفع عنها أحاديث الليل.

فللنهار أحداث ولليل أحاديث، وإن أحداث النهار مهما كانت هي أهون على النفس من أحاديث الليل.

فأحاديث الليل تزيد من لهب النار، ومن وقع السياط على الظهور.

تقوم من نومها في الصباح، تشمر عن ساعد الجد ليوم جديد.

تقول في نفسها (قد آن الأوان لكي أقوم بشأني كله من دون أحد، أنا وربي فقط.

لا أظن أن أخا زوجي سيراجعنا بعدما كان، لقد انقطع ما بيننا بحديثه.

قد كان نعم الرجل، لكنه ما أكمل جميله، وقد كان أكبر جميله أن لا

يخبرني بما أخبرني به، وأن يدفنه في بئر لا قاع له.
لنا الله، وله الله).

تصلي الصبح، وتعد الطعام لبناتها، وإذا بمن يطرق الباب.
تفتح له مسرعة، ليس من عادة أحد أن يطرق بابها في هذه اللحظة.
تفتح الباب، فإذا بابن أخي زوجها باكيا: أبي مريض جدا ويريد أن يراك أنت والبنات الآن.

.. عجيب، أمريض إلى هذا الحد، إلى حد أن يستدعينا إليه، لقد كان يخاطبني أمس، وهو صحيح معافى.

تهرع المرأة وبناتها إلى بيته، وهو بيت لا يبعد عن بيتها كثيرا.
تدخل إليه، تجده راقدا على سريره وفي وجهه إعياء كبير، تستغرب المرأة بقوة، تقول:

.. خيرا، ماذا حدث، لقد كنت على خير حال بالأمس.

_ هو الموت يا أم رحمة؟

.. موت، أي موت؟!

_ الموت الذي أخذ أخي بغتة وها هو يأخذني بغتة.

.. لا تقل ذلك، ستتعافى بإذن الله.

_ قلت لك هو الموت، أنا أعلمه وأراه.
لا يشغلني في موتتي هذه إلا أنت وبناتك.

أولادي ذكور، سيقومون على أمرهم.

أما أنت وبناتك، فمن لكن.

لقد كنتم أمانة في عنقي، أديتها على قدر ما استطعت

وها قد شاء الله أن أمضي مثلما مضى أخي

وليس لي الآن إلا أن أسلم الأمانة لصاحبها الأول

أسلمها لله رب العالمين.

تبكي المرأة، وقد رأت في وجه الرجل موتا قادما.

_ لا تبكي يا أم رحمة

وما يبكيك وقد انتقل أمرك من الضعيف إلى القوي

ومن الخائن إلى الأمين.

_ ما كنت خائنا أبدا !.

ينظر إليها نظرة تخبر بالكثير

ولا يستطيع أن يسهب فيما جرى بالأمس، فزوجته وأولاده يحيطونه ويسمعون حديثه... ويبكون.

_ لقد رأيت أخي في المنام، جاءني وفي عينيه حزن، ثم ابتسم وأخذ بيدي ومضى، مضينا معا في طريق طويل مفروش بالورود، والفراشات تملأ جوه، وعبق العطر ينتشر فيه.

فنظرت فإذا الطريق بلا نهاية، فسألته عن آخر الطريق فقال (لا يعلمه إلا ربك).

الآن أعلم تأويل الرؤيا، لقد أخذ بيدي إلى الموت.

والطريق الطويل هي حياتنا معا في القبر، وآخر الطريق هو يوم القيامة، ولا يعلمه إلا الله.

لقد تجهزت للقاء الله، ولا يشغلني إلا أنتم

لكننا نترككم في كنف الله.

يشير الرجل إلى بنات أخيه

يحتضنهم والدموع تسيل من عينيه

ينظر لأبنائه ويشير إلى بنات عمه

وقد بدأت روحه في الخروج

ينظر إلى أعلى، ويشهد الشهادة، ثم تفيض روحه إلى باريها.

يعلو صوت الحضور بالبكاء والنشيج.

* * *

فرحة

ومضت الأيام والشهور والسنون بأم رحمة وبناتها الخمس.

لم يعد هنالك من يسأل عنهن أو يقوم لهن.

أبناء أخي زوجها صغار، وأمهم لا تملك قلبا كزوجها، بل إن قلبها مملوء بالغيرة من أم رحمة.

لطالما غارت منها، فأم رحمة امرأة تلفت أنظار الجميع إليها.

تلفت أنظار الجميع لا لإعجاب بجمالها ولا بمظهرها

ولكن إكبارا لها ولدينها وكرامتها وحسن خلقها.

ولم تكن امرأة أخي زوجها على قدرها.

كما أنها عرفت بما خالج قلب زوجها من ناحية أم رحمة.

ولقد كانت تحس بشيء من هذا وأبو رحمة حي بينهم.

فلقد كان زوجها إذا ما جاء ذكر أم رحمة أمامه ينتبه ويتوه وينتبه ويتوه.

العشاق تفضحهم وجوههم وعيونهم وألسنتهم، حتى صمتهم يفضحهم ويخبر عنهم.

مضت الأيام والليالي بأم رحمة، وهي رجل البيت وامرأته، وأم البنات وأبوهم.

يوما كانت المرأة على موعد مع قدرها، القدر الذي كُتب عليها منذ أن كانت في بطن أمها .

حياة أمثال هؤلاء هي حياة الخروج من هم للاستعداد لهم آخر. تخرج من هم فتلملم ما تستطيع أن تلملمه لتتجهز للهم الجديد.

عجيب أن يجعل الله الحال هكذا.

خلقٌ خلقهم الله للهم، ولا شيء غيره.

وخلقٌ خلقهم الله للسعادة.

لا.. ليس هكذا بالضبط..

إن الله خلق أناسا للهم الكبير، قصتهم قصة الهم من أولها إلى آخرها. تكاد تخلو حياتهم من ضحكة أو بسمة.

هذا موجود حقا، نراه في حياتنا هنا وهناك.

لكن على الجانب الآخر لا نرى هؤلاء الذين كتب الله لهم السعادة لا غير، ولا يستقيم الأمر إن كانت حياة أحد على هذا النحو.

وإلا لكانت دنياه هي الجنة الموعودة

وما كان الله ليجعل جنته على هذه الأرض أبدا.

إذن، الناس على صنفين.

صنف خُلقوا للشقاء التام، وصنف خُلقوا للشقاء المخلوط بالهناء.

وأم رحمة كانت من ذلك الصنف الأول.

الصنف الذي لا ينتظر في حياته إلا الهم، ولا يخرج من دمعة إلا إلى دمعة أو دموع.

كانت أم رحمة إذا بدأت يومها تبدأه بذكر الله

تقول (اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه، وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما فيه).

كانت تنطق كلمات هذا الذكر بكل كيانها

يتلفظ به لسانها، ويفكر فيه عقلها، ويخفق له قلبها، وتنتفض له جوارحها.

أصبحت تخاف من المجهول وتعمل له ألف حساب.

لم يعد أكثر ما يشغلها الحزن على ما فات، بل الخوف مما هو آت.

لقد أدركت المرأة حقيقة حياتها، وحقيقة قصتها، والخط الذي ستسير فيه.

فاستعانت بالله صابرة، وسألت الله العفو، فإن لم يكن فاللطف، فإن لم يكن فاليقين والصبر.

راغبة فيما عند الله من حسن الجزاء للصابرين.

وهي امرأة مؤمنة مملوءة بالرجاء في الله.

الرجاء في الله وكفى.

وقد كان هذا الرجاء قبل وفاة زوجها رجاء في الله للدنيا والآخرة.

أما الآن، وبعد كل ما حدث، ولما أدركت المرأة حقيقة الأمر، فقد أصبح رجاؤها رجاء في الله للآخرة...للآخرة فقط.

فرحة هو اسم البنت الكبرى من البنات الخمس، أسماها أبواها فرحة، فقد كانت أولى بناتهم، ولقد استبشروا بها.

وكان رجاؤهم أن يجعلها الله بداية فرحتهم بهذه الدنيا التي لم تكن حينها قد

أفرحتهم أبدا، ولم تفرحهم من بعد.

في ذلك اليوم الذي كانت فيه أم رحمة على موعد مع قدرها، خرجت المرأة إلى حقلها كعادتها.

خرجت بعد إيقاظ بناتها وإطعامهن، وتدبير شؤونهن وترتيبها إلى أن تعود.

وكانت أم رحمة تترك بناتها في كنف أختهن الكبيرة فرحة، وهي الآن بنت في الخامسة عشر من عمرها، بدأت تظهر عليها علامات الأنوثة، وبدأت تنتقل من عالم الطفولة إلى عالم البلوغ.

فرحة بنت هادئة صامتة عليها مسحة من جمال.

قليلة الكلام كثيرة التجوال بنظرها فيمن حولها.

حملت الهم مع أمها منذ وفاة أبيها، وكانت هي الصاحبة والمعينة لأمها على أمرها.

كانت أم رحمة إذا أثقل عليها أمر حادثتها فيه.

وإذا أرادت أن تبكي بكت بين يديها واحتضنتها مع أخواتها الأخريات.

غير أنها تعلق عيونها بعيون فرحة، على اعتبار أنها الوحيدة فيهن التي تستوعب ما هي الحال التي عليها أمها.

فأخواتها الأخريات صغيرات، وعقولهن قاصرات عن أن تدرك إدراكا تاما ما يدور من حولهن.

وكانت أم رحمة تعتمد عليها اعتمادا كاملا في تدبير شأن البيت في غيابها.

وهي من البنات التي يعتمد عليهن، عاقلة وحكيمة،

يزينها صمتها وأناتها.

في كل يوم كانت تخرج فيه أم رحمة كانت توصي فرحة بأخواتها وبالبيت.

وكانت أكثر ما توصيها به أن لا تخرج لا هي ولا أحد من أخواتها إلى خارج البيت مهما كان.

وكانت فرحة عند حسن ظن أمها، فلم يُعهد عليها خروج من المنزل قط، وكانت حريصة على أخواتها أكثر من حرصها على نفسها.

في ذلك اليوم خرجت أم رحمة بعد التأكيد على فرحة بكل ما تؤكد به كل يوم.

خرجت أم رحمة إلى الحقل، وأنهت عملها هناك، ثم جلست وأسندت ظهرها طلبا للراحة، لكن هيهات.

ذهبت المرأة بعينيها بعيدا فإذا بابنتها (أمل) وهي الثانية في العمر من بعد رحمة قادمة تهرول وفي وجهها حزن وغم.

همت المرأة إليها، أسرعت:

_ما لك يا أمل

ماذا حدث

ردت البنت بعد أخذ نَفَسها وابتلاع ريقها.

...فرحة يا أمي

_ ما لها

.. لا نعلم أين هي.

تصرخ المرأة

_ كيف؟

.. لا ندري، بعد خروجك بقليل، إذا بها غير موجودة في المنزل.

بحثنا عنها في كل أنحاء المنزل، تحته وفوقه، فلم نجدها.

ثم خرجنا للشارع نبحث عنها وننادي عليها.

وذهبنا لبيت عمي فلم نجدها، ولما طال الأمر وأوشك الظهر جئتك لأخبرك.

صرخت المرأة أكثر

_ ولماذا لم تأتوني من حينها.

.. كنا نظنها ستعود

ولما طال غيابها أتيتك.

أسرعت المرأة ومن ورائها ابنتها إلى المنزل.

دخلت إليه، وبدأت تنادي على ابنتها وتبحث وتسأل بناتها.

ولما تأكدت أنها ليست بالمنزل حقا، خرجت إلى الشارع تسأل عنها الجيران والأقارب.

الكل يجيبها بأنهم لم يروها.

أسرعت بعد ذلك لبيت أخي زوجها، سألتهم عنها فأخبروها أنهم لم يروها.

عادت المرأة لبيتها وقد ازداد خوفها .

ماذا يا ترى قد حدث لها

لعلها خرجت في حاجة وستعود بعد قليل

لقد أوشك الظهر على الأذان

وقد أخبرتها البنات أنها غير موجودة منذ الصباح، من بعد أن غادرت هي البيت إلى الحقل بقليل .

ليس من عادة فرحة الخروج

وليس لها صديقات إلا القليل

يأتونها من حين لآخر.

وتكاد لا تخرج هي إليهن أبدا، لأنها تقوم على شأن أخواتها.

إذن، ما الذي حدث.

تسأل المرأة بناتها مرات ومرات، وتشتد في السؤال مرة بعد مرة: متى رأيتموها آخر مرة

ماذا قالت لكم بعد خروجي

هل أخبرتكن أنها ستخرج

هل نادى عليها أحد

هل حدثت واحدة منكن بشيء

هل كانت تخرج بعد خروجي للحقل قبل ذلك

هل رأت واحدة منكن شيئا غريبا عليها اليوم أو قبل اليوم

إلى أين تظنّن أنها ذهبت

هل دخل أحد المنزل بعد خروجي

هل دخل أحد المنزل بعد خروجي في أي يوم من قبل

هل رأيتن عليها شيئا

هل عرفتن عنها شيئا

تسأل المرأة بناتها السؤال بعد السؤال

وتعيد السؤال المرة بعد المرة.

والبنات تجبن، والجميع يبكون.

جاء الأقارب والجيران كلهم يستفسرون ويبحثون ويتساءلون.

والمرأة بينهم باكية مذهولة، لا تدري أين أبنتها، ولا تعلم ماذا تصنع.

جاءت ابنة الجيران، وهي في مثل سن فرحة.

جاءت والدموع في عينيها، لكن على وجهها حكاية ورواية.

جلست بجانب أم رحمة، انتهزت فرصة ما بين الكلام والبكاء، ومالت على أم رحمة، وحادثتها بحديث خفيض.

حدقت المرأة فيها بقوة، ثم هرولت إلى الخارج.

دفعت باب أحد الجيران، نادت بأعلى صوتها (محمود).

محمود هذا هو ابن الجيران، سنه يقترب من سن فرحة.

نادت المرأة فخرج إليها محمود، أمسكت بتلابيبه، وشدته بقوة، وصرخت فيه، أين ابنتي.

أم محمود وأبوه واقفان مندهشان.

أسرعت نحوها أم محمود، على رسلك يا أم رحمه، وما علاقة محمود بابنتك.

أم رحمه: اسألوه هو.

ينظر الرجل إلى ابنه: ما الأمر يا محمود.

يخفض الولد رأسه إلى الأرض: لا أعرف عنها شيئا.

تعاود أم محمود سؤالها لأم رحمة: وما علاقة محمود بها، أخبرينا.

تجيب أم رحمة: إن ابنكم الطاهر العفيف كان يغازل ابنتي من فوق سطح المنزل، ولقد حادثها أكثر من مرة.

يصرخ أبو محمود في ابنه: هل هذا صحيح.

يطأطيء الولد رأسه أكثر وأكثر، ولا يجيب.

تصرخ أم رحمة: إذن الأمر صحيح.

تقول أم محمود: يبدو أنك يا أم رحمة لم تعرفي بهذا إلا الآن، لكن، ما علاقة هذا باختفاء ابنتك.

أم رحمة: إن الذي أخبرني بذلك، أخبرني أن ابنكم كان يحادثها على سطح المنزل في صبيحة هذا اليوم، قبل اختفائها بقليل.

يهم أبو محمود إلى ابنه، يبعد يد أم رحمة عنه، يمسكه بقوة، يصفعه على وجهه بشدة، يصرخ فيه (هل هذا صحيح).

يجيب الولد (نعم هذا صحيح).

تصرخ أم رحمة: أين ابنتي.

يصيح الولد: لا أعرف، أقسم أني لا أعرف إلى أين ذهبت.

يصفعه والده مرة أخرى ويقول: وفيم كنت تحادثها قبل اختفائها.

يجيب الولد: لقد كنت أحادثها حديثا عاديا مثل كل مرة.

أم رحمة: وفيم كنت تحادثها في كل مرة.

الولد: كنت معجبا بها، وكانت هي معجبة بي

وكنت أحادثها في رغبتي في الزواج منها عندما يحين وقت الزواج.

أم رحمة: لقد اختفت بعد حديثك معها اليوم مباشرة

وهذا يعني أن لحديثك معها علاقة باختفائها.

الولد: أقسم أني أتكلم بالحقيقة،

لا أعرف إلى أين ذهبت، ولم يختلف حديثي معها اليوم عن حديثي معها في أي يوم.

الوالد: ولماذا هذا الخزي الذي أنت فيه، طالما أنك لا تعلم عنها شيئا.

الولد: أنا خَجِل لأنكم عرفتم بعلاقتي بها

وليس أكثر من ذلك.أم رحمة: وإلى أي حد كانت هذه العلاقة.

الولد: أقسم على أن الأمر لم يعد ما حدثتكم به،

كان كل ما بيني وبينها حديث حول إعجابي بها، وكانت هي تبادلني نفس الإحساس.

ولم تكن أخلاقها لتسمح بأكثر من ذلك، ولم أكن أنا بأقل خلقا منها.

أم رحمة: وأين تظن أنها اختفت.

الولد: لا أعرف.

أم رحمة: ولماذا لم تذهب للبحث عنها، طالما أنك تحبها، وتنوي الزواج منها.

الولد: لا أعرف أين أبحث عنها، لكني سأبحث في كل مكان .

تصفعه أم رحمة صفعة قوية، وتقول وهي تغادر المنزل: إذن فافعل.

تعود أم رحمة إلى دارها.

تسأل البنات: هل من جديد، هل عادت رحمة، هل من خبر.

لم تمكث كثيرا خارج المنزل، لكن هذا هو حال الحزين التائه.

تسأل البنات، والإجابة (لا جديد).

عادت أم رحمة إلى بيتها، وهي أقرب إلى تصديق محمود.

لكن الوساوس تكاد تذهب بعقلها.

هل من الممكن أن يكون محمود قد وقع بها، فغادرت المنزل هاربة، خشية أن تفتضح.

هل من الممكن أن تكون قد حملت منه، فحادثته في الأمر لما رأت بروز بطنها،

فأخبرها بأنه ما يزال صغيرا على الزواج، وبأن أبويه لن يوافقا على زواجه الآن، فقررت حينها أن تغادر وتهرب.

تتذكر أم رحمة شكل ابنتها، هل كانت بطنها بارزة، أم أن الأمر كان عاديا.

لم تلحظ شيئا غريبا على بطنها.

تقول المرأة في نفسها: لقد كانت كثيرة الشكاية بوجع البطن في الآونة الأخيرة.

هل كان هذا من حمل، أم أن الأمر كان عاديا.

فرحة بنت صغيرة، أتاها الحيض قريبا، ولعل هذا الحيض هو الذي كان يؤلمها ويوجعها.

يكاد عقل المرأة يذهب عنها.

تصرخ بين الحين والحين باكية، ثم تلملم صراخها وبكاءها، وتفكر في الأمر، وفي ما يجب أن تفعله.

تظل على حالها إلى أن يحين العصر.

تخرج للشارع مرة أخرى باحثة هنا وهناك.

تخرج النسوة معها، يجوبون الشوارع والطرقات، لا يتركون بيتا إلا ويطرقونه ويسألون.

ولا يتركون شارعا ولا دربا ولا طريقا إلا ويبحثون فيه.

والرجال كذلك، حتى أنهم يبحثون في الحقول، وبين الزراعات والأشجار والنخيل.

ويظل الحال هكذا، إلا أن تغيب الشمس، ويخيم الليل والظلام، فيعود الجميع من حيث أتوا.

وتعود أم رحمة إلى بيتها، والذهول يضرب عقلها وقلبها وعينيها.

تكاد المرأة أن تجن، ابنتها البكر غائبة، ولا تعرف أين هي.

وهذا من أكبر بلاءات الدنيا وأشدها.

ابنة صغيرة غائبة

وأمها مكلومة باكية

أين يا ترى تكونين

هل أنت حية يا حبيبتي

ومع من أنت

باسمة أم حزينة

جائعة أم طاعمة

وأين ستنامين

وكيف ستنامين

ومع من ستنامين

هل تركتينا راغبة أم مرغمة

وكيف تتركينا راغبة

ونحن أمك وأخواتك

تركتينا مرغمة إذن

مرغمة وباكية

وأنت الآن تبكين

دموعك في عيوني

وآهاتك من حلقي

وآلامك في فؤادي

آه يا صغيرتي آه يا حبيتي

آه، آه، آه.

يأتي الليل، وتنام البنات باكيات، وتسند الأم ظهرها للحائط، والدموع تكاد تعمي عيونها، والألم يفلق كبدها.

تنظر إلى الباب، لعله يطرق وتأتي فرحة: لن أسألها حينها أين كانت، ولا لماذا غابت، المهم أن تعود.

لكن الباب لا يطرق، ولا تعود فرحة.

تنظر لسقف البيت تريد من بعده سقف السماء.

تناجي ربها: رباه

يا ربي الرحيم

لا تحملني ما لا طاقة لي به.

لقد عاهدتك يا ربي على الحمد والصبر والرضا

لكن ذلك فيما أطيق

أما ما لا أطيق..

يا رب

ليس أثقل على الظهر من غياب ابنة وضياعها

فلا يُعلم من حالها شيء

لو أنها ماتت بين يديّ لكان الأمر أهون عليّ

أما أن تغيب فلا أعلم لها حالا

وتكون حية في مكان ولا أراها

كيف أحيا يا رب مع ذلك

اللهم إن هذا ما لا أجد لي به طاقة

ولا أراني صابرة عليه

اللهم الطف بي وبابنتي

اللهم أعد لي ابنتي يا رب العالمين.

لا تكتحل عيونها بغمض إلى أن يطلع النهار

وما أن ترى ضوء الصباح حتى تقوم وتهرع إلى الخارج

تبحث في الطرقات من جديد.

يكاد عقل المرأة يجن.

تسير في الطرقات وتنادي بأعلى صوتها (يا فرحة).

وبكاؤها يخنق صوتها.

يجتمع الناس إليها، ويسير البعض منهم معها نساء ورجالا، ويواسونها ببعض الكلمات، علها أن تجد إلى مواساتها سبيلا.

لا تسمع المرأة غير صوت ابنتها يتردد في أذنها، ولا ترى غير طيفها يلوح أمام عينيها.

تعود إلى بيتها بعد رحلة بحث طويلة.

يوم ثان ولا خبر عن ابنتها.

تأتي إحدى النسوة، وتخبر أم رحمة أنها رأت فرحة تسير ناحية النهر، وتحمل في يدها بعض الملابس.

النهر لا يبعد كثيرا عن قريتهم، وكثير من نساء القرية تذهبن إليه بملابس و وأطباق وصحون لتغسلنها وتنظفنها.

لكن أم رحمة وبناتها لم يذهبوا إليه لهذا الغرض قط.

تسأل المرأة بناتها بحدة: هل رأيتنها تخرج ببعض الملابس؟.

تجيب البنات: لا، لم نرها.

تقوم المرأة إلى الملابس التي تضعها في صندوق خشبي كبير في جانب من البيت.

تقلب الصندوق رأسا على عقب، تبعثر كل محتوياته.

هل هناك ملابس غير موجودة؟!

بعض الملابس القليلة، من ملابس فرحة ومن ملابسها هي ومن ملابس أبي رحمة أيضا.

فما زالوا يحتفظون بملابس الرجل، حتى يتذكروه كلما وقعت عيونهم على ملابسه.

تعود أم رحمة إلى المرأة التي أخبرتها الخبر سريعا.

تسائلها: هل رأيتها تسير ناحية النهر.

هل بدا عليها أنها ذاهبة لتغسل هذه الملابس.

أم بدا لك أنها مغادرة إلى مكان ما.

المرأة لا تجيب بأكثر من ذلك

: رأيتها تسير ناحية النهر

ولم أتفحص فيها لأتبين حالها ومرادها.

تسرع أم رحمة ناحية النهر، ومعها بعض النسوة وبعض الرجال.

تشير المرأة إليها بالناحية التي رأتها تسير فيها، تتخذ تلك الناحية طريقا لها إلى النهر، تصل ومن معها إليه.

وعلى حافته تقف، تنظر له، تسأله بعيونها (هل رأيت ابنتي)، لكن النهر لا يجيب أحدا، إنما يبتلع في بطنه أو يحمل على ظهره.

تجلس في مكانها، تتطلع يمينا وشمالا.
هل جلست فرحة لتغسل الملابس هنا فزلت قدمها فابتلعها النهر وغرقت.

آه، تصرخ المرأة صراخا يفلق الأكباد.
أم أنها غادرت وهربت، وجاءت للنهر لتعبره إلى الجهة الأخرى حيث الطرق والسيارات التي تتجه شمالا وجنوبا.
آه، تصرخ صراخا أكثر من سابقه.
يخلع بعض الرجال ملابسهم، وينزلون للماء، ويغوصون فيه، لعلهم يعثرون على جثة فرحة غارقة في أعماق الماء.
ثم يخرجون بعد أن يعييهم البحث والغوص.

يسألون أصحاب الأرض الملاصقة للنهر: هل رأى أحدكم فرحة هنا أمس، هل رآها أحدكم تغسل ملابسا أو تركب قاربا.
الجميع يجيب بأنهم لم يروها ولا يعرفون عنها شيئا.
تتطلع أم رحمة للقوارب القريبة من المكان، وهي قوارب صيد يستعملها الناس للمرور من جانب النهر إلى الجانب الآخر.
تسأل أصحاب هذه القوارب، فيجيبون جميعا أنهم لم يروها:

مع من غادرت إذن؟

وبأي قارب عبرت النهر؟ أم أنها غرقت، لكن ما الذي دفعها لتأتي بالملابس لتغسلها هنا، وهذا لم يكن من عادتنا قط.

تحادث أم رحمة نفسها، وتحادث من حولها، ودموعها لا تتوقف، وآهاتها تتردد: أين أنت يا فرحة.

كيف غادرت المنزل ولماذا.

أغارقة أنت الآن في بطن هذا النهر.

أم ركبت ظهره وغادرت.

ولماذا، ولماذا؟.

آه يا ابنتي، قصمت ظهري.

وأذهبت بقية الصبر التي كنت أتصبر بها.

فما عاد لي طاقة بصبر ولا رغبة بحياة.

اللهم موت، اللهم موت.

تعود المرأة إلى بيتها، ولا تدري من أمرها شيئا، تسير وسط الناس ذاهلة كأنما جُنت.

تجلس في بيتها، والناس من حولها رجالا ونساء.

أحد الأهل من الرجال يقول:

يجب أن نعبر النهر للجانب الآخر، ونركب من هناك إلى المدينة، لعلنا نعثر عليها، أو نجد أحدا يدلنا عليها، حين نسأل كل من نراه ونقابله.

يرد آخر: كيف ذلك ونحن لا نعلم إلى الآن هل غادرت ورحلت أم أنها غرقت.

يقول ثالث: إن كانت قد غرقت فهذا ما لا حول لنا به ولا قوة، وما لا

نستطيع أن نفعل فيه شيئا، أما أن تكون قد غادرت، فهذا ما نستطيع أن ندركه، أو أن نحاول فيه، والتوفيق من عند الله.

تجول أم رحمة بعيونها بينهم وتفكر في كلامهم.

هي تعرف أنه لو عثر عليها أهلها من الرجال فسيقتلونها لا محالة. فقد هربت من بيتها، ولا تفسير لذلك عند الناس إلا بأحاديث عن الشرف والعفة.

وهي أحاديث لا تُقطع في مثل هذه البيئات القروية إلا بالدماء.

يستحسن كل الموجودين هذا الرأي.

: فليركب الرجال إلى المدينة ليبحثوا عنها.

ترى أم رحمة أنهم قد عزموا على الأمر، فتوافقهم على أن تذهب معهم.

حرصا منها على إيجاد ابنتها، وخوفا من أن يمسوها بسوء إن هم وجدوها من دونها.

يرفض الرجال في البداية ذهابها معهم، ويطلبون منها أن تبقى لبناتها، فهذا الأمر من الممكن أن يستمر لأيام.

لكنهم يوافقون على اصطحابها في النهاية لبكائها وإلحاحها الشديد.

تترك البنات مع الجارات والقريبات.

تذهب مع الرجال، يعبرون النهر إلى الجانب الآخر، يركبون السيارة إلى المدينة.

يسألون كل من يقابلونه عن فرحة، يسألون ويصفون.

يجيبهم أحد السائقين: لقد ركبت معي بنت بهذه المواصفات التي تذكرونها، وأنزلتها هناك في المدينة.

يراجعونه: هل أنت متيقن من ذلك.

يجيب الرجل بتردد واضح:

لا لست متأكدا، لكن على الغالب عندي..

يسألونه: ومتى كان ذلك؟.

يجيب: من يومين تقريبا.

يسألون: هل أنت متأكد من هذه الفترة.

يجيب الرجل مترددا مرة أخرى:

لا لست متأكدا، لكن على الغالب عندي أيضا..

ينزلون المدينة ويجوبون شوارعها وحاراتها يسألون.

لم يرها أحد، هكذا يرد الناس.

لم يتركوا قهوة إلا سألوا الناس فيها

ولا تركوا دكانا إلا وسألوا صاحبه.

دخلوا كل البيوت التي تأوي الغرباء بثمن

سألوا كل المستخدمين الذين يوزعون الخادمات هنا وهناك على بيوت الأثرياء.

خاب كل سعيهم، ولم يهدهم أحد لطريق

فعادوا من حيث أتوا، عادوا والأسف يلفهم، والحسرة والكمد لأم رحمة وحدها.

عادت أم رحمة لبناتها

عادت وقد بدأت تعي أن الأمر قدر مقدور

ويبدو أنها لن ترى ابنتها ثانية

هكذا بدأ قلبها يحدثها.

قلبها المفطور..

لا تعرف أين ابنتها ولا كيف حالها.

ولا تدري هل هي في عداد الأموات أم في عداد الأحياء.

هل غادرت أم غرقت، وإذا كانت قد غادرت فمع من ولماذا.

وإذا كانت قد غرقت، فما الذي ذهب بها للنهر.

وهذا لم يكن من عادتها ولا من عادات أمها وأخواتها.

باتت أم رحمة على شبه اليقين بأنها لن ترى ابنتها ثانية.

بدأت تلملم جراحا تأبى أن تلم.

وتتصبر صبرا كصبر أيوب.

وتحمل هما على ظهرها تنوء بحمله الجبال.

ضياع البنت.. البنت البكر

التي كانت العون الوحيد لها في دنيا لم تترك لها عونا.

تمضي الأيام والليالي على أم رحمة، تمضي غير بعيد.

وفي ليلة يأتيها في منامها زوجها...

تتطلع إليه وتنظر في عينيه وتهم أن تسرع إليه لتحتضنه غير أنها لا تستطيع.

تقف في مواجهته، يقف في مواجهتها، وتتعلق عيونهما.

في عينيه أسى وحزن، تنتظر أم رحمة أن يبادرها بالكلام فلا يفعل.

تبدأه المرأة: ما لك يا أبا رحمه.

يجيب الرجل: حزين كما ترين.

تجيب المرأة: ولم.

يجيب هو: ألا تعرفين.

_ لا، لا أعرف.

... أين فرحة.

_ آه يا أبا رحمة، هل عرفت.

... نعم عرفت.

_ أمطلعون أنتم هناك على كل ما يحدث لنا.

... يطلعنا الله على بعضه ويخفي عنا البعض.

_ وما الذي أطلعك الله عليه في أمر فرحة.

... أعلمني أنها غابت عنكم.

_ وهل أعلمك أين غابت؟

... لا لم يعلمني.

_ ولماذا لم يعلمك هذه؟

... لا يُسأل الله عن فعله وتقديره، له حُكْم وحِكَم.

_ لو أعلمك لأعلمتنا؟.

يصمت الرجل وينظر إليها.

تكمل المرأة: أما أعلمك إن كانت قد غرقت أو غادرت.

يحدق الرجل فيها أكثر، ويزداد الحزن في عينيه.

تقول المرأة: لم لا تجيب يا أبا رحمة.

تنحدر دموعه على خديه، وهو صامت يحدق فيها.

تهم المرأة أن تحتضنه وتمسح دموعه، فلا تستطيع.

_ ما الذي يحجبني عنك يا أبا رحمه.

... أنا في دار وأنت في دار، ولقاؤنا يوم أن تأتينا.

_ إذن، ما الذي أبكاك؟

... سؤالك، وما وراؤه.

_ وماذا في سؤالي؟

تعود دموع الرجل للجريان.

... لقد سألتِني عن حال فرحة، هل غرقت أم غادرت.

_ نعم، سألتك، وماذا في ذلك.

تصمت المرأة هنيهة ثم تقول: أتبكي لأنك تعلم أنها غرقت.

... بل أبكي لأني أعلم أنها لم تغرق.

أنسيت يا أم رحمة أن الميت يعلم بقدوم أهله عليه إذا ماتوا، بل ويكون في فرح لملاقاتهم بعد غياب.

كان يجب عليك أن تعرفي من أول ما رأيتني أن رحمة لم تمت.

لو كانت ماتت لما أتيتك حزينا، بل أنا حزين لأنها لم تمت، فرحة غادرت يا أم رحمة.

تنتبه المرأة لحديثه وتصرخ: نعم، إذن هي غادرت.

لا أدري أيسعدني ذلك أم يحزنني يا أبا رحمة.

هل أسعد لأني أعلم الآن أن ابنتي حية رجاء في لقياها مرة ثانية.

أم أحزن على هروبها وتركها لنا، وأحزن تفكيرا في الحال الذي دعاها لأن تتركنا.

_ لماذا تركتنا يا أبا رحمة، ومع من؟

... قلت لك يا أم رحمة أن الله يعلمنا في عالم الموت أشياء ويحجب عنا أشياء، وهناك أشياء يعلمنا الله إياها، ولكن لا يجوز لنا أن نعلمكم بها.

_ وهل أعلمك الله بحال فرحة ومكانها.

... لا لم يعلمني، ولا أعلم إلا أنها حية وموجودة.

_ هل تركتنا راغبة أم راغمة.

... لا أعلم.

_ هل من الممكن أن تكون قد خُطفت على غير رغبة منها.

... لا أعلم، وكل شيء جائز وواردٍ.

_ وما الذي عليّ فعله؟

... هذا ما تحددينه أنت؟

_ قل لي يا أبا رحمة، ماذا أفعل، وإلى أين أذهب؟

... استعيني بالله ولا تعجزي، والأمر بيد الله بعد ذلك، إن شاء أعادها، وإن شاء لم يعدها.

_ يا أبا رحمة.

... سلام الله عليك.

تستيقظ المرأة من نومها.

تنادي بناتها لتوقظهن.

_ أختكم فرحة حية، لقد أخبرني أبوكم بذلك.

لا تنتظر المرأة حتى يصبح الصباح، تنادي على بعض أقاربها، تخبرهم برؤياها، يقررون أن يذهبوا ثانية للبحث عن فرحة.

يذهبون إلى المدينة مرة ثانية، يسألون ويبحثون، وكلهم أمل في هذه المرة.

لكنهم يعودون كما عادوا أولا.

لا أحد رأى ولا أحد سمع.

تعود أم رحمة هذه المرة وفي خاطرها حيرة كبيرة.

لقد أحست من كلام أبي رحمة لها في المنام أنها ستجد فرحة إن هي حاولت ثانية.

عادت لبيتها، انتظرت ليلها، علها ترى أبا رحمة مرة ثانية، لكنه لم يأت.

يأتيها أبو رحمة في منامها كثيرا، لكنه لا يأتيها دائما.

تحتاجه في أوقات كثيرة وتنتظره، لكنه لا يأتيها حينها.

وفي أحيان يأتيها على غير انتظار منها وعلى غير توقع.

تنام ليلة بعد ليلة فلا يأتي، الحرقة تأكل كبدها، وقد عاد رجاؤها في العثور على فرحة.

يأتيها أبو رحمة بعد ليال.

يأتيها حزينا واجما كما المرة السابقة

تسائله مسرعة

_ لقد بحثت ولم أجدها يا أبا رحمة.

ينظر إليها ودموعه تسيل.

_ ما لك يا أبا رحمة، لقد فهمت من كلامك أن فرحة موجودة، وأنه يجب عليّ أن أجدّ في طلبها، وأمّلت من كلامك أن أعثر عليها.

... لقد أخبرتك حقا أنها موجودة، وطلبت منك السعي من أجلها، لكني لم أعدك بشيء، ولم أقطع لك بأنك ستجدينها.

_ إذن لماذا طلبت مني أن أعاود البحث بعدما أعياني.

... رجاء في أن تجديها، وحتى تفعلي ما عليك، مع يقيني أن الأمر في النهاية بقدر الله، ولله أن يعطي على قدر السعي وله أن يمنع.

_ إذن كنت تعلم أنه من الممكن أن أجدها ثانية.

... نعم، كنت أعلم، وكنت آمل أن تجديها.

_ أنت تعلم مكانها الآن يا أبا رحمه.

... قلت لك، نحن الأموات لا نعلم كل شيء، إنما يعلمنا الله ما يشاء ويحجب عنا ما يشاء، والذي يعلمنا الله إياه، ليس مسموحا لنا أن ننقله لكم إلا بإذنه.

_ ولماذا لا تدعو ربك يا أبا رحمة أن يعلمك مكانها إن كنت لا تعلم، وأن يأذن لك بأن تخبرني.

... ومن قال لك أني لا أدعو.

_ ولماذا لا يستجيب الله لك.

_ وهل يستجيب الله لكل الدعاء؟!.

إنما يسير الله الأمور بحكمة بالغة، فيجيب دعاء ويؤخر آخرا، حكمة بالغة تلك التي يسيّر الله بها الحياة، لا نستطيع أن نحيط بها من كل جوانبها، وليس لنا أمامها إلا الرضا والتسليم.

_ هل أعلمك الله يا أبا رحمة إن كانت فرحة ستعود يوما إلينا أم لا.

... لا، لا أعلم.

_ وهل تعلم حالها الآن في مكانها.

... لا، لا أعلم.

_ هل هي سعيدة أم حزينة، في يسر أم في شدة.

... وكيف تتخيلين حال ابنة صغيرة تركت بيت أهلها.

_ إذن، تركتنا مكرهة، مخطوفة إذن.

... حتى لو تركتكم راغبة، فحسرتها عليكم وعلى فراقكم لن تنقطع.

_ وهل تركتنا راغبة؟!.

... لا أعلم.

_ لا تعلم، أم أنك تعلم ولا يجوز لك أن تخبرني.

... سيّان.

_ وماذا عليّ أن أفعل الآن.

... اصبري، وتصبري من أجل بناتك.

_ كلامك فيه إشارة إلى أني لن أرى فرحة مرة أخرى.

... لا تيأسي من روح الله.

ولكن، لا تجعلي حزنك على فرحة قاصما لظهرك، فإن ظهرك تحتاجه بقية بناتك.

_ آه يا أبا رحمة، لماذا تركتني.

... وهل أنا الذي تركتك برغبتي، هذا قضاء الله.

_ فليأخذني أنا أيضا.

... ومن يبقى للبنات؟.

تصبري يا أم رحمة، فإن عليك حملا كبيرا.

وعلى قدر الحمل والصبر تكون المثوبة والأجر.

_ آه يا أبا رحمة، لقد ثقل الحمل، وما أحسبه إلا سيثقل أكثر.

وكيف لي بحياة وابنتي غائبة عني ولا أعلم من حالها شيئا، ولا أعلم إن كنت سألقاها ثانية أم لا.

آه يا أبا رحمة، ما لي وللدنيا، ما لي وللدنيا.

تنحدر الدموع من عيون أبي رحمة .

وينظر إليها نظرة إشفاق ويقول:

هوني عليك، لم تخلق الدنيا لراحة، إنما الراحة في الآخرة، إنما الراحة في الآخرة.

ويغيب طيف أبي رحمة وهو يردد هذه الكلمة.

وتستيقظ أم رحمة وهي ترددها.

إنما الراحة في الآخرة.

* * *

أمل

تمر الأيام والليالي بأم رحمة وبناتها الأربع.

بدأت تلملم حزنها كما لملمت من قبل، وترقأ دمعها، وتشد عليها مئزرها.

إن كانت قد ذهبت بنت فقد بقيت لها أربع.

وإن كان من حق الأولى عليها أن تبقى باكية ثاكلة طول عمرها، فمن حق الباقيات عليها أن لا يمنعها بكاء ولا ثكل عن أن تقوم على أمرهن.

ولا أحد يقوم على أمرهن غيرها، لا أب ولا عم، هي كل دنياهن، أمهن وأبوهن.

لم يمض الزمان بعيدا حتى كانت أم رحمة على موعد جديد مع القدر، القدر الذي شمر لها، وبدا أنه لن يتركها، إلا إذا تركته هي، ومضت بقضاء الله الخاتم إلى قبرها.

ابنتها (أمل) وهي البنت التي تصغر فرحة مباشرة.

هي بنت في عمر الثالثة عشر، كانت صديقة لفرحة لتقاربهما في السن، وتلازمهما الدائم.

حتى أن أمهما قد ألحت عليها بالسؤال في غياب فرحة، ظنا منها أنها ربما تعرف كثيرا من أمرها.

لكن أمل أخبرت أمها في كل مرة وهي باكية أنها لا تعلم شيئا، ولو كانت تعلم لأخبرتها بلا ريب، فحرصها على عودة أختها فرحة حرص لا يقل عن حرص الأم، وخصوصا أن فرحة بالنسبة لها أخت وصديقة ورفيقة.

لما غابت فرحة، تغير حال أمل تغيرا كبيرا، تغيرا أكثر من تغير الباقين.

كلهن حزينات، وكلهن باكيات، إلا أن الكسر لم يظهر إلا في أمل وفي أمها، فبقية البنات أصغر من أن يكسرهن الخطب، هن غضات طريات لم يصلن بعد إلى صلابة الكسر.

أمل صغيرة، لكنها أكبر من بقية أخواتها، وهي على أبواب البلوغ، صغيرة على الكسر لكنها أقرب إليه.

وقد بات واضحا أن ما بينها وبين أختها فرحة كان أكبر من مجرد أخوة عادية.وبرغم أن الأخوة هي عروة أوثق من عروة الصداقة، إلا أن أوثق العرى هي عروة الأخوة إذا ما وثقت بالصداقة والرفقة والألفة، وهذا هو الذي كان بين أمل وفرحة.

كانت أمل مستودع أسرار فرحة، الأذن التي تسمع لها في كل حين.

وكما كانت فرحة سندا لأمها ورفيقة لها من ناحية، فقد كانت أمل هي سند فرحة ورفيقتها من الناحية الأخرى.

لم تكن تتخيل أم رحمة أن يكون هناك شيء من أمر فرحة قد خفي عن أمل، غير أن أمل قد أقسمت لأمها والدموع في عينيها أكثر من مرة أنها لا تعرف شيئا عن ما حدث لفرحة .

ولم تدر أم رحمة هل كانت تلك الدموع التي في عيونها هي دموع الصدق أم دموع التي تعرف شيئا وتخشى من ذكره.

مرت الأيام غير بعيدة، وحال أمل يتغير يوما بعد يوم، يزداد شحوب وجهها، والسواد يشتد أسفل عينيها، والهزال يأكل جسدها.

في البداية تعاملت أم رحمة مع الأمر على أنه شيء طبيعي. فصدمة فرحة قد ضربتهم جميعا، أشحبتهم جميعا، وأهزلتهم جميعا.

لكن أمر أمل طال أكثر، بل ويزداد سوءا يوما بعد يوم.

الحزن كمد يعصر قلوب الناس وأجسادهم، و النسيان دواؤه، وهو دواء يجرعه الناس سواء رضوا أو لم يرضوا.

هو دواء حتمي جعله الله قدرا مقدورا، من رأفته بهم ورحمته عليهم.

حتى أم رحمة نفسها، بدأت تظهر أكثر تماسكا.

هي أم، عليها أن تتماسك من أجل بناتها الأربع الباقيات.

لقد جمعت من أجلهن حزنها وخبأته في داخلها، فبدا ظاهرها قويا، لكن في داخلها كسر لن تجبره الأيام والليالي.

أما أمل فمكسورة ظاهرا وباطنا، هي طفلة صغيرة غير قادرة على تحمل الأمر والتعايش معه، أختها فرحة كانت شيئا كبيرا في حياتها، ويبدو أنها غير قادرة على إكمال حياتها من غير هذا الجزء الكبير.

أمل في سن بين الطفولة والبلوغ، فلا هي طفلة لتنسى كما تنسى أخواتها

الأطفال الباقيات.

ولا هي امرأة لتتحمل وتصبر كما تتحمل وتصبر أمها.

حال البنت يسوء أكثر وأكثر.

الكل من حولها يلحظ ذلك، الأم والبنات والأهل.

وصل الأمر بها إلى حد الرقاد وعدم الحركة إلا للضرورة القصوى وبعنت بالغ.

أيقنت أم رحمة أن الأمر كبير ويحتاج إلى مراجعة طبيب.

القرية التي يسكنونها قرية بسيطة فقيرة، لا توجد فيها مستشفى ولا يوجد بها طبيب.

حالة البنت تزداد سوءا، والمرأة عاجزة عن فعل شيء ، فلا هي تجد الطبيب، ولا هي تجد المال اللازم له.

بدأت أم رحمة في استخدام الوصفات الشعبية التي يستخدمها الناس من حولها لمثل ذلك.

وصفات من الأعشاب والحشائش وغيرها مما تنتجه الأرض من حولهم.

كل يوم بوصفة جديدة ونصيحة جديدة من الناس.

في كل يوم نصيحة جديدة ووصفة جديدة، وحال جديد.

أمل تزداد سوءا بعد سوء.

بدأت قصة أمل تشغل البيت والأهل، وتنسيهم إلى حد ما أمر فرحة.

هكذا هي الحياة، الغائب له بعض الأمر، والحاضر له الأمر كله والقلب كله.

تتابع أم رحمة حال ابنتها، توقن في نهاية الأمر أن لا حل إلا أن تذهب لطبيب.

الطبيب لا يوجد إلا في المدينة، ولا يوجد المال الكافي للذهاب إليه ولا لشراء الدواء اللازم.

تقرر أم رحمة أن تذهب للطبيب بأي ثمن.

تنظر في أمرها، ترى أن تبيع حمارها، وبثمنه تعالج ابنتها.

الحمار في القرية من أهم المتاع، فلا حياة لفلاح إلا وحماره معه، هو حامله وحامل متاعه وحامل محاصيله وزراعاته.

لكن حال أمل قد أصبح حالا يبعث على الريبة والخوف، وأم رحمة أم، وقد جزمت قاطعة أن تعالج ابنتها مهما كان الثمن.

تذهب بابنتها إلى المدينة، في هذه المرة لم يذهب معها أحد من أهلها، الكل مشغول بحاله.

مضت بابنتها، وتركت بناتها الأخريات في كنف أكبرهن، ابنتها رجاء بنت الحادية عشر من العمر.

رجاء هي الأخرى قد تغير حالها، ضعفت وهزلت.

لكنها أكثر تماسكا من أمل، أو هكذا يبدو.

مضت أم رحمة بأمل، تعبر النيل إلى الجهة المقابلة، وتركب من هناك السيارة في الطريق إلى المدينة.

تحضن بيديها ابنتها أمل وتمسح على رأسها.

وتتلفت بعيونها في كل مكان من حولها، لم ينقطع رجاؤها في عودة فرحة.
تحتضن أمل، وتمسح بيديها على رأسها، وتتلفت بوجهها يمنة ويسرة، والدموع تبلل وجهها.
تصل إلى الطبيب، يرى الطبيب أمل.
ثم يخبر أمها أن ابنتها تمر بحالة نفسية مرضية بالغة، تؤثر هذه الحالة على جسد المريض تأثيرا كبيرا، إلى حد الهلاك، إلا أن يلتزم المريض بالتعليمات، ويتناول دواءه كما يوصف له.
يكتب لها الطبيب دواء، ويؤكد على أهمية أن تتناول البنت طعامها في ميعاده، لأن الطعام والشراب هو أهم دواء لمثل هذا الهزال الشديد.
تخرج أم رحمة من عنده، تذهب لأقرب صيدلية، تأتي بالدواء، الدواء غال جدا، لكن ما معها من مال يكفي ويزيد قليلا.
تأخذ ابنتها، وتتجول قليلا في الطرقات، تريد من ناحية أن تخفف عن ابنتها وتبعث في روحها بعضا من البهجة، ومن ناحية أخرى تبحث بعيونها في الوجوه، علها تقع على وجه ابنتها فرحة.
تشتري لبناتها بعضا من الطعام والشراب والملابس، فهي فرصة لن تتكرر، ولا تملك حمارا آخر لتبيعه.
تعود بابنتها بعدما تنفق ما معها من مال.
تدخل على بناتها، فيفرحون، ويأكلون ويشربون، ويلبسون ملابسهم الجديدة.

هي ملابس بسيطة لكنها جديدة، وهي عندهم حادثة لم تحدث من قبل في حياتهم إلا نادرا.

أحسنت أم رحمة إذ فعلت، فالحزن لا يذهب إلا بالفرح. وخصوصا مع الأطفال الصغار، فحزنهم ظاهر، وفرحهم ظاهر، وتغير حالهم الظاهر ليس بالصعب ولا المستحيل.

أما الكبار فأمرهم أكبر، حزنهم أعمق، وكسرهم أكبر، فإن فرحوا بعد حزن، ففرحهم ظاهرهم، وباطنهم الحزن لم يتغير.

هكذا كانت أم رحمة وكانت وأمل، ابتسموا للبنات ابتسامات مصطنعة، وفي داخلهم نار، وفي عيونهم دمع لا ينتهي.

تطلب أم رحمة من أمل أن تأكل، فتأكل أمل بعضا من لقيمات صغيرة.

تلح عليها أمها، فلا تستطيع البنت أكثر من ذلك، وتطيب خاطر أمها بإخبارها بأنها ستأكل بعد ذلك، وأنها الآن مجهدة من السفر.

تأخذ بعد ذلك دواءها، ويبيت الجميع ليلتهم كما يبيتون.

تقوم أم رحمة إلى شأنها، توقظ بناتها، وتطعمهم، توصي بناتها بوصايا كل يوم، تؤكد على رجاء أن تعتني بأمل المريضة، تخرج بجاموستها إلى حقلها، سيرا على قدميها من غير حمار.

المشهد غير معتاد، أن يذهب الفلاح لحقله ببهائمه من غير حماره.

الجميع يعرفون القصة، يعرفون أن أم رحمة اضطرت لبيع الحمار من أجل علاج ابنتها، والجميع يكبرونها لذلك، وليس الأمر بالمستغرب، هذه هي

الأمومة، وهذه هي مكانة الأبناء، وكلهم كانوا سيفعلون مثلما فعلت لو وُضعوا فيما وضعت فيه.

وتمر الأيام، والحال هو الحال.

لم يجدّ جديد على أمل.

لا هي بدأت تتعافى، ولا هزالها بدأ يتغير، ولا بدأت تأكل وتشرب كما ينبغي.

تلح أم رحمة عليها، ولا جديد.

الأمر أكبر من البنت وقدرتها.

لم تعد لها رغبة بطعام ولا بشراب.

لا تقدر على الحركة إلا قليلا، وأصبحت لا تتكلم إلا نادرا.

الأمر يصعب أكثر فأكثر.

وأم رحمة لا تعرف ما يجب عليها أن تفعله.

تضطر إلى معاودة الطبيب مرة أخرى، تذهب إليه بالبنت، يؤكد لها الطبيب أن لا أمل في علاجها إلا بأن تأكل، وقد كتب لها الطبيب في المرة الأولى بعض الأدوية التي تساعد على فتح شهيتها، لكن الأمر برمته لم يفلح.

يؤكد لها الطبيب أن الأمر بيد ابنتها الآن، ولا دخل للطب فيه.

ليس أكثر من أن تتناول الدواء المكتوب لها والأمر بعد ذلك إليها.

إما أن تتحامل على نفسها وتأكل كما ينبغي، وإما أن تكون هي التي تقتل نفسها بنفسها. أم رحمة تؤكد للطبيب أنها ترى أن الأمر خارج عن إرادتها وقدرتها.

يؤكد لها الطبيب أن الأمر نفسي حقا، لكن إرادة المريض هي أقوى سلاح في مثل هذه الأمور.

ثم ينهي الطبيب معها الأمر على أن تعود لمنزلها هي وابنتها، ثم تحاول مع ابنتها في تخطي هذا الأمر، مع تناول الدواء، والاستمرار في ذلك لأسبوع أو لأسبوعين.

فإن استمر الأمر بعدها، فلا بد من أن تعرض ابنتها على طبيب نفسي، أو طبيب تغذية، أو أن تذهب لمستشفى متخصص، لتُحجز فيه البنت بعضا من الوقت، حتى تُجرى لها التحاليل اللازمة، ولتعلق لها المحاليل الغذائية التي يضطرون إليها في مثل هذه الحالات، إن استمر الأمر وتعقدت أبعاده.

تعود أم رحمة إلى بيتها مستسلمة لقضاء الله راجية فيه.

تعود والدموع لا تفارقها.

والدعاء لا يغيب عن لسانها.

تعود وهي تحتضن ابنتها، وتمسح على رأسها، وتحتضنها ابنتها، وتمسح دموع أمها بيديها.

يمر يوم واثنان وثلاثة، ولا شيء جديد

غير الحال الذي يزداد سوءا.

لم ينجح إلحاح ولا شدة ولا رفق مع أمل

الأمر أكبر من قدرتها ورغبتها حقا

البنت تزداد هزالا، ووجهها يزداد شحوبا.

يقول لها البعض (لعلها ممسوسة أو مسحورة)
تأخذها أمها إلى شيخ يعالج من السحر والمس بالقرآن، وترفض أن تذهب للسحرة والدجالين، فهي امرأة تخشى على دينها كما تخشى على ابنتها.
الشيخ يقرأ على أمل مرة وثانية وثالثة، ثم يؤكد لأم رحمة أنها لا تعاني إلا من مشاكل نفسية وجسدية، فلا مس ولا سحر.
يصر البعض على أن الأمر فيه شيء من السحر والمس، يلحون عليها أن تذهب لساحر معروف في بلدة مجاورة، ومع إلحاحهم الشديد، ومع حال البنت السيئ، تأخذها وتذهب بها.

وفي الطريق تحدثها نفسها عن ما تفعله، هو شيء لا يحبه الله ولا يرضاه.
ومما رأته المرأة في الدنيا أصبحت لا ترغب إلا في رضا الله وفيما عنده في آخرته.
لقد أدركت المرأة منذ زمن أنها قد كُتب عليها الشقاء في الدنيا، ولا سبيل للهناء إلا في آخرتها.
فشمرت لذلك هي وزوجها، شمرت صابرة لبلاء الدنيا وراغبة في عطاء الآخرة.
أخذت تحدث نفسها في الطريق إلى هذا الساحر بالذنب الذي ستفعله، وبغضب الله عليها إن هي أقدمت عليه.
السحر من الأمور الكبيرة التي نهى الله عنها.
حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر أن من يأتي ساحرا ثم يصدقه

فهو كافر بما أُنزل عليه.

تتذكر المرأة كل ذلك، ثم تنظر إلى ابنتها وإلى حالتها البالغة، فلا تستطيع أن تحول وجهتها ولا أن تغير سيرها.

أوشكت على الوصول للساحر.

وأحاديث نفسها لا تتوقف، ونظرها لابنتها وإشفاقها الكبير.

يظهر منزل الساحر، هو منزل معروف ومشهور في المنطقة كلها.

تقف المرأة عند رؤيته، تستفسر منها ابنتها وهي واهنة عن سبب الوقوف، لا ترد المرأة، بل تنظر للمنزل ثم تنظر لابنتها، ثم تحلق ببصرها في السماء.

تكرر ذلك أكثر من مرة، ثم تحتضن ابنتها بقوة، وتهم بالرجوع.

تسألها ابنتها مندهشة: لماذا نرجع؟

تجيبها: حتى لا يغضب منا.

تقول البنت: من؟

ترد المرأة: الله.

لم تكن البنت تعلم كثيرا عن تفاصيل الأمر، ولا عن ماهية السحر والحكم عليه.

كل ما كانت تعلمه أنها ذاهبة إلى رجل لتتداوى عنده، وقد ظنته مثل الشيخ الذي سبقه.

أخذت أمها بيديها، وعادت من حيث أتت.

وأخذت تشرح لها الأمر بتفاصيله وهما عائدتان.

وأفاضت في الكلام عن ما حرمه الله، وعن الرغبة فيما عنده .

ثم ساءلت ابنتها: كيف ترين الحياة؟.

البنت: الحياة بائسة بغيضة.

الأم: وكيف ترين الآخرة.

البنت: جميلة وعظيمة.

الأم: فإذا ما فقدنا الدنيا، أفلا نسعى للآخرة.

البنت: بلى.

الأم: هذا هو الذي دفعنا إلى الرجوع يا ابنتي، رجاء فيما عند الله، وهو القادر على شفائك.

البنت: وحتى لو لم يكن شفاء .

تصمت البنت قليلا وأمها تحدق فيها.

ثم تكمل: وحتى لو كان الموت.

تنظر لها أمها مدهوشة، ما كانت تتخيل أن تنطق ابنتها بذلك، وكلمة الموت كلمة ثقيلة، وهي الأم الثاكلة من قريب، وثكلها كان أشد الثكل.

الأم تنظر إلى ابنتها، ثم تتوقف عن السير وتحتضنها بقوة.

ثم تقول: لا تقولي ذلك، ستتعافين بإذن الله.

ترد البنت: ولو لم أتعاف يا أمي، الأهم هو رضا الله.

الأم: رضا الله ورحمته؟!

البنت: رحمته في الآخرة.

الأم: في الآخرة والدنيا !.

البنت: رحمة الآخرة أعظم وأبقى.

الأم يزداد اندهاشها، كلام أمل كلام أكبر من سنها وعقلها، لكأنه كلام يجريه أحد على لسانها.

أمل بنت عاقلة، لكن ليس إلى هذا الحد من الحكمة .

تقول الأم: لكننا مطالبون بأن نطلب رحمته وفضله للدنيا والآخرة.

البنت: فإن أبى للدنيا.

الأم: نلح عليه.

البنت: فإن أبى.

الأم: نلح عليه أكثر.

البنت: فإن أبى.

الأم: لا ينقطع الرجاء في الله.

البنت: نعم، لا ينقطع الرجاء فيه، ولكن لله حِكمة في العطاء والمنع.

الأم: نعم.

البنت: وهو يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ويمنعها عن من يحب وعن من لا يحب، لكنه لا يعطي الآخرة إلا لمن يحب.

يزداد اندهاش المرأة وذهولها من كلام ابنتها.

تكمل البنت: والرضا بقضاء الله والتسليم له من أهم أسباب نيل الآخرة.

الدنيا كلها لا تساوي عند الله شيئا، ويجب أن لا تساوي عندنا شيئا.

ينتهي الحوار، ولا ينتهي اندهاش المرأة وذهولها.

ليست هذه كلمات ابنتها، هذه كلمات نطق بها ملاك على لسانها.

هكذا قالت المرأة في نفسها بعد نهاية الحديث.

عادت المرأة وابنتها إلى البيت، ومر اليوم، ومرت الليلة.

في صبيحة هذا اليوم، ظهرت على أمل أمارات عافية تلوح، اصفرار وجهها يتغير إلى قليل من الحمرة، تقوم من نومها وتتحرك بطبيعية.

رأت أمها ذلك فذهلت، وذهلت بناتها كذلك .

احتضنتها أمها باكية تصرخ (الحمد لله، لقد أنعم الله علينا وتفضل، لما رفضنا المداواة بمعصيته، عافانا الله بفضله وكرمه).

حالة من الفرح لم تمر على أهل البيت من قبل.

أفطرت الأم مع بناتها، أكلت معهم أمل بكل طبيعية، أكدت عليها أمها أن تتناول دواءها في ميعاده.

ثم خرجت المرأة لحقلها.

خرجت أمل وراء أمها، ووقفت على عتبات البيت، ولم يكن هذا من عادتها ولا من عادة أحد من البنات.

نظرت الأم خلفها وهي تغادر، فوقعت عينها على عين أمل.

تبتسم أمل لأمها ابتسامة رائقة، لكن عيونها تبدو مرقرقة بالدموع.

تبتسم الأم لابنتها، تستغرب قليلا لخروجها وراءها على غير العادة، لكنها تفسر الأمر على أنه إحساس بالتعافي منها، وفرح وسرور لذلك.

تقضي المرأة يومها، ثم تعود في الظهيرة إلى المنزل، تستقبلها بناتها على تشوق ككل يوم.

أمل على نفس حال الصباح، يبدو من ظاهرها أنها تتعافى بفضل الله وكرمه. لكن الصمت ما يزال ملازما لها، لا تتكلم، رغم أنها تتحرك وتأكل وتشرب، وتبتسم لأمها وأخواتها معظم الوقت.

جاء العصر، خرجت الأم مرة ثانية لحقلها.

ثم عادت مع غروب الشمس.

مضت العشاء، همّ الجميع بالنوم، بعد يوم سعيد على غير حال أيامهم جميعها.

نامت البنات، وأمهم ما تزال تذكر الله بعد الصلاة، وتتهيأ للنوم.

قامت أمل واقتربت من أمها.

أمسكت يد أمها وقبلتها

ثم نظرت في عينيها وقالت: لا أعلم شيئا عن هروب فرحة يا أمي، إلا أني أجزم لك أنها لم تفرط في نفسها يوما.

تنظر أمها لها مندهشة: ما الذي دفعك للحديث في هذا الأمر الآن.

أمل: لا شيء، غير أني ظننت أنك غير مصدقة لي فيما قلته لك.

الأم: مصدقة لك يا ابنتي، وأمر فرحة موكول لله، إن شاء أعادها لنا، وإن شاء أبقاها غائبة عنا، ولا نملك إلا الصبر والرضا.

أمل: نعم يا أمي، الصبر والرضا، أيا كان ما كان وأيا كان ما سيكون.

تتوقف الأم قليلا عند قولها (وأيا كان ما سيكون).

ثم تقول: نعم، الصبر والرضا على كل حال، والأمل في فضل الله ورحمته وكرمه.

أمل: الأمل في جنة الله ورضوانه.

الأم: الأمل في فضل الله ورحمته وكرمه وجنته ورضوانه.

أمل تقبل يد أمها للمرة الثانية وهي تهم بالرجوع لمكان نومها.

وتردد وهي في طريقها: الأمل في جنة الله ورضوانه، الأمل في جنة الله ورضوانه.

أم رحمة ترى اليوم من حال أمل ما لا يقل غرابة عن أمس، عندما تحدثت البنت بكلام، جزمت أم رحمة أنه ليس من كلامها، وإنما هو كلام ملاك جرى على لسانها.

اليوم حال أمل لا يقل غرابة.

عافية غريبة، وابتسامات أغرب، وحديث في نهاية اليوم أغرب وأغرب.

تستعيذ المرأة بالله من وساوس الشياطين.

ثم تهم بالنوم، وعينها على أمل التي تهم هي الأخرى بالنوم، وعيونها على أمها، مبتسمة ابتسامتها التي لم تنقطع طوال اليوم.

تصحو الأم من نومها.

تهم بإيقاظ بناتها، توقظهن واحدة بعد أخرى، إلى أن تأتي أمل، فتجدها

على حال غريبة، نائمة وهي مبتسمة، تلك الابتسامة التي صاحبتها طوال اليوم.

تهم الأم بإيقاظها، تنادي عليها، مع هزة خفيفة لها، تتأخر أمل في الاستيقاظ.

ترتاب الأم، وتهز بعنف: تفتح أمل عيونها وهي مبتسمة، وتقوم، لتخبر أمها أنها كانت مستغرقة في حلم .

الأم: وما هو الحلم.

أمل: رأيت أبي واقفا، وأنا وأنت يا أمي نائمتان، فينظر إليّ فيبتسم، ثم ينظر إليك فيبكي.

الأم: ولكنك كنت مبتسمة وأنت نائمة، هل كان حال أبيك معنا يدعو للابتسام، لقد كان يبتسم لك ويبكي لي، أم أنك نسيت أمك في منامك، ولم يهمك إلا أمرك.

أمل: لا يا أمي، كنت أبتسم لأبي عندما يبتسم لي، فإذا ما نظر إليك وبكى بكيت أنا الأخرى. لكنه في نهاية الحلم، وبعد أن نظر إليك وإليّ أكثر من مرة، حدق فيّ طويلا، وثبت نظره عليّ، وابتسم طويلا، فقابلت ابتسامته بابتسامة طويلة مثلها، وهذه هي التي أيقظتني عليها يا أمي.

الأم: الله المستعان.

تقوم أم رحمة واجمة حزينة، فتلاحقها أمل بالسؤال:

ما الذي أحزنك يا أمي، وكيف ترين تفسير هذا الحلم.

الأم: لا شيء، تفسير الحلم عند الله، ونرجو أن يكون خيرا.

أمل: لكن يبدو أن له تفسيرا عندك، وهو الذي أحزنك، بالله أخبريني.

الأم: فلنترك الزمن ليخبرنا جميعا بما يكون، والأمر إلى الله.

قامت أم رحمة، وقد جال بخاطرها، أن هذا الحلم ربما يكون إشارة إلى تعافي أمل، وموتها هي.

لم تكن أم رحمة لتحزن على موتها أو لتخاف منه، وإنما كان كل تفكيرها في حال بناتها إن قبضها الله وتركتهن.

لم يعد لهن أب ولا عم، وهي بالنسبة إليهن كل شيء.

لقد كان الموت أحب إليها من الحياة في مشاهد كثيرة سابقة، عند موت زوجها، وعند غياب ابنتها فرحة.

لكنها، وبعد تمني الموت، كانت تعود لتفكر في حال البنات، وتدعو الله أن يطيل في عمرها من أجلهن، وأن يعينها على الصبر والتحمل.

البنات هن كل حياتها.

لا شيء في الحياة يدعوها للرغبة فيها.

هي رغبة في القيام على أمر بناتها لا غير.

قامت أم رحمة لتطعم بناتها قبل أن تذهب إلى حقلها.

فقالت أمل: أنا أشتاق لزيارة أبي يا أمي.

الأم: نعم، نزوره بإذن الله اليوم، لقد غبنا عنه طويلا.

لم تكن أم رحمة قد زارت قبر زوجها منذ فترة.

حالها وحال البنات وغياب فرحة شغلها عن ذلك.

ولقد رحبت باقتراح أمل كثيرا.

رغبة في زيارة قبره، ومحادثته.

فزيارة الأموات في قبورهم عند محبيهم كزيارتهم وهم أحياء، والحديث معهم وهم موتى، كالحديث معهم وهم أحياء.

وعدت أم رحمة أمل والبنات أن يذهبن جميعا معا إلى المقابر.

وذلك بعد العصر، بعد أن تكمل أم رحمة عملها في الحقل، وتقوم على أمر جاموستها الوحيدة، التي لم تعد تملك غيرها، بعد بيع حمارها من أجل مداواة أمل.

المرأة تحمد الله كثيرا، فلقد بدأت ترى تعافي أمل يوما بعد يوم.

فلا ضير أن لو باعت كل ما تملكه من أجل ذلك.

تذهب أم رحمة لحقلها، تقضي حاجتها.

ثم تعود للمنزل بعد صلاة الظهر.

تعود لتطعم هي وبناتها.و يقيلون قليلا.

ثم يقومون لصلاة العصر، ويخرجون قاصدين المقابر.

المقابر بعيدة قليلا عن القرية، على أعتاب بداية الصحراء.

ومعروف أن المقابر لا تكون إلا في أرض رملية، حيث أن الأرض الطينية لا تصلح رطوبتها ولا طينتها لدفن الجثث.

القرية التي تعيش فيها أم رحمة قرية قريبة من النيل، والمقابر على أطراف الصحراء.

المسافة بين القرية والمقابر تستغرق حوالي ساعة سيرا على الأقدام.

هم يسيرون طبعا ولا يركبون، فلا سيارات في هذه القرى إلا ما ندر، ولا مال ليركب به الناس جيئة وذهابا.

تسير أم رحمة ببناتها الأربع، متجهة ناحية المقابر.

ولسانها يلهث بذكر الله، ورأسها تعرّج على حوادث حياتها حادثة بعد حادثة.

موت زوجها، غياب ابنتها، فقرها الشديد، عدم وجود الولد.

تتذكر كل هذا، فلا يزيدها التفكير في حالها وألمها إلا حمدا لله وثناء عليه.

لقد عرفت من قديم أن الدنيا لم تُخلق لمثلها، فأصرت على أن لا تفقد الآخرة كما فقدت الدنيا، واستعانت بالله على ذلك.

العجيب أنه في سيرهم إلى المقابر، لاحظت أم رحمة أن أمل تسير مبتسمة تلك الابتسامة التي لم تفارقها منذ يومين.

حال عجيب، هي تتعافى فعلا، لكن ابتسامتها غريبة، وديمومتها أغرب.

يصلون إلى المقابر، يجلسون على طرف القبر، يلمسون بأيديهم جوانبه، يبكون جميعا.

يعلو نشيج الأم، ويعلو نشيج أمل، وبقية البنات يتبعونهما في ذلك.

يبكون بكاء من فقد حبيبا لتوّه.

لقد مرت على وفاة الرجل أعوام.

لكنهم كأنما فقدوه اليوم.

بكاؤهم بكاء لفقده ولفقد فرحة وللحال التي هم عليها.

البكاء يبعث على البكاء، والهم يبعث على تذكر الهموم.

تنتحي الأم جانبا من القبر بعيدا عن سمع بناتها، وتشرع في حديث مع زوجها.

يا زوجي

يا حبيبي

يا من كنت ظهري وسندي

الآن أنا بلا ظهر وبلا سند

إلا من الله

تركتني وبناتك

ذهبت فرحة ولم تعد

ومرضت أمل بعدها

حتى خشيت عليها الموت

لكنها توشك أن تتعافى

فضلا من الله وكرما.

يا أبا رحمه

حدث ربك عنا وعن حاجتنا إليه

عن فقرنا لغناه

وعن ضعفنا وحاجتنا لكنفه

وعن بؤسنا وحاجتنا لرحمته وفضله

حدثه وأخبره قبل ذلك سلامنا

سلام عليه وعليك وعلى عباد الله الصالحين

جالت أم رحمة بنظرها بعد مناجاتها مع زوجها، فإذا بابنتها أمل على نفس حالها.

منتحية لجانب من جوانب القبر بعيدا عن بقية البنات.

وغارقة في مناجاة هامسة لا يُسمع منها شيء.

الدموع في عينيها والابتسامة على شفتيها، أي غرابة هذه، وأي حال هذا الذي هي عليه.

أسئلة بدأت تُلح على أم رحمة ساعة بعد ساعة كلما نظرت لابنتها أمل ورأت حالها الغريب.

قاموا بعد حوالي ساعة.

عادوا إلى منزلهم عند الغروب.

خرجت أم رحمة وأتت بجاموستها.

يأوون إلى فراشهم بعد العَشاء وصلاة العِشاء .

تجلس أم رحمة على فراشها، تُسبّح وتذكر، وتسْبَح بخيالها وتتذكر.

تأتيها أمل، كما في الليلة الماضية، ترتمي في حضنها، تقبلها، يدا ورأسا وجبينا، ثم تشرع في الحديث:

لا تحزني ولا تجزعي يا أمي من الدنيا ومن أحزانها.

الأم: الحمد لله يا ابنتي.

تمسح بيديها على رأس ابنتها، وتقول:

ما لك يا أمل، حالك غريب، عافيتك كانت أسرع مما يُتخيل، وابتسامتك الدائمة غريبة، ويبدو أن لك حالا مع أبيك لا تذكرينه.

أمل: وهل سأخفي عنك شيئا يا أمي؟!، وهل أخفيت من قبل؟!.

لا شيء أخفيه أبدا، وليس بيني وبين روح أبي إلا تلك الرؤيا التي حدثتك بها.

الأم: وما أخفيت عني شيئا من رؤياك؟.

أمل: أبدا، حدثتك بها كلها، ما أخفيت شيئا.

الأم: في رؤياك بشارة بعافيتك، وربما تكون إشارة لموتي، أتعلمين هذا؟.

أمل: لا، لا أعلم هذا ولا أظن أبدا.

الأم: وكيف إذن تفسرين هذه الرؤيا.

أمل: لم أشغل بالي بتفسيرها.

الأم: وما الذي طرأ عليك وغيّر حالك هكذا؟.

أمل: إن كنت تسألين عن العافية، فهي من فضل الله، ولا ظن لها سببا ظاهرا .

الأم: أتحدث عن ابتسامتك الغريبة، ومناجاتك الخافتة على قبر أبيك.

أمل: أما عن ابتسامتي، فهي مما لا أعرف له سببا، وهي بشارة خير بإذن الله.

وأما عن مناجاتي له على القبر، فقد ناجيته كما تناجينه، وكلمته كما تكلمينه.

الأم: وماذا قلت له؟.

أمل: قلت له، أحتاجك وأحتاج قربك.

تصمت المرأة دامعة ولا تتحدث.

تكمل أمل حديثها:

ماذا لو ذهبنا إليه جميعا يا أمي.

لو ذهبنا إليه جميعا لارتحنا من عناء الدنيا ومصائبها التي لا تنتهي.

ولاجتمع شملنا معه مرة أخرى.

وكنا جميعا في جوار الله وكنفه.

وما عند الله خير وأبقى، ولا أظن أن يجمع الله علينا شقاءين، شقاء الدنيا وشقاء الآخرة.

عادت أمل بذلك لحديثها العجيب، الحديث الذي يصعب على فتاة صغيرة مثلها أن تتحدثه.

أم رحمة: حالك عجيب يا أمل، وحديثك أعجب.

وكيف نكون في جوار أبيك يا ابنتي، نقتل أنفسنا إذن.

أمل: لا، أنا أتخيل فقط، بل وأتمنى، وماذا لو كان ذلك بتقدير الله وقضائه دون انتحار منا؟.

الأم: وكيف يكون ذلك؟.

أمل: هل يصح لنا أن ندعوا به؟.

الأم: لا، فالله يكره أن يقتل الناس أنفسهم، ويكره أن يدعوا عليها بالموت.

خلقنا الله في هذه الدنيا لنحيا ونصبر عليها ونشكره ونعبده.

لا لكي نقتل أنفسنا، أو لنتمنى الموت وندعوا على أنفسنا به.

تكمل الأم حديثها: حديثك يا أمل يبعث على الريبة، استعيذي بالله يا ابنتي من وسوسة الشياطين. أنت صغيرة على أن تحملي الهم وتجزعي منه إلى هذا الحد.

أمل بابتسامتها المريبة: ماذا لو ذهبت أنا وحدي إليه.

الأم مغضبة صائحة: قلت لك استعيذي بالله يا ابنتي، ما هذه الحال التي أنت عليها، لا تفجعيني في نفسك مثلما فجعتني أختك، ما عاد في قلبي متسع لحزن، ولا عاد ظهري قادرا على حمل أكثر من هذا.

من أجل أمك وأخواتك استعيذي بالله، واصبري، والحياة أمامك طويلة، فيها ما يسعدك ويفرحك.

لا تجزعي من رحمة الله.

أمل: لا أجزع من رحمة الله، ولكني أرغب فيها.

تقوم أمل من أمام أمها، تقوم إلى فراشها، وابتسامتها لا تفارقها، وأمها تنظر إليها نظرة الخائفة، ثم ترقد أمل في فراشها، ووجهها إلى وجه أمها، تبادلها النظرات، مع ابتسامتها العجيبة، وعين أمها عليها لا تفارقها.

تغمض أمل عيونها للنوم وتنحدر دمعة واحدة على خدها عند إغماضها.

فزعت الأم عندما رأت الدمعة، وهمت أن تصيح في أمل، لكنها رأتها قد أغمضت عينيها بسلام، فرأت أن لا تقطع سلامها، وتركتها للنوم، وذهبت هي إليه تحاوله ويحاولها.

تستيقظ أم رحمة عند الفجر، تقوم فتصلي، ثم تهم بإيقاظ بناتها حتى يصلوا.

تبدأ بإيقاظ أمل، تذهب إليها، وإذا بها على نفس الحالة التي بدأت عليها النوم، على نفس الجنب الذي نامت عليه، وبنفس الوضع.

والغريب المدهش أن الدمعة التي انحدرت حينما أغمضت عينيها للنوم ما تزال معلقة على خدها.

دمعة واحدة نزلت، ثم إنها ما تزال معلقة .

لا هي نزلت، ولا هي تبخّرت.

ما تزال معلقة، شاهدة على شيء، أو مخبرة بشيء.

أم رحمة مدهوشة، تنادي عليها: هيا يا أمل، قومي يا ابنتي.

وأمل لا ترد ولا تتحرك.

تضع أم رحمة يدها على رأسها وتهزها برفق: قومي يا ابنتي، لقد أتي الفجر.

وأمل لا حراك ولا انتباه لها.

تنظر المرأة لابنتها صامتة، وترفع يدها عنها، ثم تعتدل في جلستها.

ثم تهمس لابنتها وهي تمسح على رأسها:

قومي يا ابنتي

قومي يا أمل

قومي يا حبيبتي

قلت لك ما عاد في قلبي متسع لحزن

وما عاد ظهري قادرا على حمل أكثر من ذلك

أبوك فاتني

وأختك فاتتني

والحياة كلها فاتتني

والموت خير لي من الحياة

ولم أتصبر عليها إلا من أجلكم

أفتتركيني وتذهبين

أنت أيضا

أتتركوني جميعا

أكلما وجدت من أحدكم عونا بخل به عليّ

أكلما وجدت من أحدكم صاحبا ذهب وتركني

ما الذي يحملكم على هذا

ولماذا لا أترككم أنا.

أكتب عليّ أن أجرع الحزن عليكم جميعا واحدا بعد واحد

أنتم تموتون مرة واحدة

وأنا أموت موتات وموتات

على كل واحد منكم أموت موتة
ثم أبعث من جديد من أجل أن أموت أخرى على آخر.
أنا لست أسامحكم.
ولكن وما ذنبكم؟!
هو قدر كُتب عليكم
وقدر كُتب عليّ
ولا مفر من القدر
أكنت تعلمين يا ابنتي ما أنت صائرة إليه
عافيتك السريعة بعدما ذهب الرجاء فيها
حالك العجيب في هذه الأيام القليلة
ابتسامتك العجيبة
أحاديثك الأعجب
رؤياك لأبيك، ورغبتك في زيارته.
آه أنا الآن أعلم تفسير رؤياك
لقد ابتسم أبوك لك فرحا بلقياك القريب
ولقد بكى لي حزنا على حالي وشفقة عليّ
يتركني أحبائي واحدا بعد واحد

والحمل ثقيل

والخطب كبير

ولا معين ولا أنيس.

آه يا أبا رحمة

آه يا فرحة

آه يا أمل

آه

تهز أم رحمة أمل بعنف، وترفعها، وتحضنها بقوة، وتبكي صارخة.

وبناتها يفزعن إليها، ويلتففن حولها، ويبكنّ ويصرخن.

وتتعالى الصيحات والآهات والنشيج.

* * *

رجاء

ماتت أمل

والحزن خيم على البيت وأهله

هو حزن مخيم ومقيم من قديم

الحزن في هذا البيت كالحوائط فيه

ثابت لا يمضي ولا يتغير.

أم رحمة كعادتها، تستعين بالله على الصبر عند كل مصائبها. مصائبها التي أضحت أكبر من كل صبر.

إلا أنها لا تملك إلا التصبر، وذكر الله والاستعانة به.

لسانها لا يغفل عن ذكر الله لحظة واحدة.

ذهبت فرحة، ثم ذهبت أمل

ويا تُرى، من ستذهب بعد ذلك .

أم رحمة في حالة من الصدمة، غير متزنة، لا في حركتها، ولا في كلامها.

وعلى نفس حالتها ابنتها رجاء، وهي البنت التي تلي أمل في العمر.

في حالة من الصدمة وعدم الاتزان.

أم رحمة تتماسك للحمل الذي لا يحمله عنها أحد

أما ابنتها رجاء فتستسلم للحال.

تشبه حالتها حالة أمل عندما غابت فرحة

إلا أن المتغير في المشهدين، أن رجاء تبدو غير متزنة.

ويستمر حالها طويلا

يوما بعد يوم، ثم أسبوعا بعد أسبوع.

خمسة عشر يوما مرت على موت أمل

ورجاء على حالها، بل وتزداد سوءا.

يوما استيقظت أم رحمة والبنات، ثم أيقظت رجاء، لتجدها لا تتحدث مطلقا.

لقد أثقل الحزن لسانها.

لا.. لقد أعجزه تماما، فما عاد ينطق أبدا.

كما أنها لا تدري من أمرها شيئا، تنظر لأمها ولأخواتها نظرات مضطربة، وتحرك رأسها كالمسوسة أو المسحورة.

تبكي أم رحمة وتصرخ وتحتضن ابنتها، وبجوارها بقية بناتها (رضا ورحمه).

تأخذ أم رحمة ابنتها رجاء وتمضي في الطريق باكية.

لا تستفيق إلا وهي على أعتاب ذلك البيت

بيت الساحر الذي كانت قد ذهبت إليه بأمل من قبل.

تقف بابنتها على أعتاب البيت

ثم تنظر للسماء

وتخطو ناحية الدخول.

تنظر المرأة في عيني ابنتها وقدماها قدم داخل البيت وقدم خارجه،
فتشير إليها البنت بالعودة.
يبدو أن الله لا يرضى لهذه المرأة المؤمنة أن تقع في المعصية.
فإن هي ضعفت، أو دفعها حالها لذلك دفعا
أرسل الله إليها من يعينها على الاعتصام به.
ابنتها الصغيرة المريضة التي لا تتكلم ولا تعي هي التي تدفعها للعودة .
البنت لا تتحرك من نفسها،
هناك دافع يدفعها لتدفع أمها.
تعود أم رحمة بابنتها إلى البيت مسرعة.
تترك ابنتها في البيت، ثم تهم إلى حقلها
وتأخذ جاموستها إلى السوق لتبيعها.
لقد عزمت على أن تذهب بابنتها إلى المدينة لعلاجها.
وها هي تبيع جاموستها مثلما باعت حمارها لعلاج أمل.
تبيع الجاموسة، تأخذ ثمنها، تأخذ ابنتها وتذهب بعدما تترك ابنتيها
الصغيرتين الباقيتين (رضا ورحمة) في بيت زوجة عمهما.
هما بنتان صغيرتان، لن تستطيعا أن تقوما على شأنهما.
لقد كانت الأم تترك البنات قبل ذلك في كنف فرحة، أختهن الكبرى
ثم في كنف أمل، ثم في كنف رجاء.
فما عادت فرحة، لقد ذهبت.

وما عادت أمل، لقد ماتت.

وما عادت رجاء، لقدأخذت الأم ابنتها رجاء وذهبت إلى الطبيب في المدينة، نفس الطبيب الذي ذهبت بأمل إليه من قبل.

ينظر الطبيب إلى البنت، يفحصها، يستغرب ويندهش.

يقول للأم: ما هذا الذي يحدث لبناتك؟، وكيف تعيشون؟.

إن بناتك يتعرضون لصدمات عصبية كبيرة.

ابنتك الأولى التي أتيت بها من قبل وهذه البنت، على نفس الحال.

صدمة عصبية كبيرة ألمت بهما، وهذه تبدو أكبر من سابقتها.

الأم: هذا قضاء الله علينا، ولا راد لقضاء الله.

الطبيب: ما الذي يحدث، كيف تعيشون؟

الأم: نعيش كما يعيش الناس.

يلحظ الطبيب أن الأم لا تريد أن تخبره بالتفاصيل عن ظروف حياتهم، مع أنه في مثل هذه الحالات، يكون من المهم أن يلم الطبيب بالظرف الذي أحدث المشكلة، فهي مشكلة نفسية وعصبية، وعلاجها يتطلب معرفة بالأسباب الحياتية والشخصية التي أدت إليها.

يقول الطبيب: وكيف حال أمل الآن؟.

تقول الأم: قد ماتت، رحمها الله.

يُصدم الطبيب من إجابة المرأة، وتبدو على ملامحه مظاهر الصدمة.

يقول: ماتت؟!، لا حول ولا قوة إلا بالله،

إن في حياتكم شيئا غريب.

تقول المرأة: قلت لك، قضاء الله يا دكتور.

لقد غابت ابنتي الكبرى. ذهبت ولم تعد، فحدث لأمل ما حدث حزنا على أختها، وها هي رجاء، يحدث لها ما يحدث حزنا على أختيها.

الطبيب: يا الله.

لا بد إذن أن ندرك رجاء قبل فوات الأوان،

لا بد أن تذهبي بها إلى طبيب نفسي، أو إلى مشفى لعلاج الأمراض النفسية، لأنها ستحتاج مع حالتها هذه إلى المكث لوقت تحت الملاحظة والعلاج.

تقول الأم: لا أريد أن أُفجع في ابنتي هذه مثلما فُجعت في أمل.

دلني على هذا المشفى حتى أذهب إليه.

يكتب لها الطبيب عنوان هذا المشفى.

تأخذ أم رحمة ابنتها وتذهب إلى هناك.

وكانت قد أخبرت البنات وزوجة عمهم أنها ربما تتأخر ليوم أو يومين أو أسبوع، لأنها كانت تعلم أن الحالة ربما تستدعي المكث في مشفى لبعض الوقت، لقد أخبرها الطبيب بذلك في حالة أمل من قبل، وهي الآن حريصة على أن لا تُقصّر مع رجاء أي تقصير، حتى لا تسير الأمور كما سارت من قبل مع أمل.

تدخل المشفى، تعرض ابنتها على الأطباء، يقررون حجز البنت ووضعها تحت الملاحظة المكثفة، حالة البنت كانت تدعو لذلك.

تمكث الأم مع ابنتها في المشفى، يمر يوم وراء يوم.

تدفع لإدارة المشفى تكاليف الحجز والعلاج من مالها الذي حملته معها بعدما باعت جاموستها.

الأيام تمر يوما بعد يوم، والتكاليف باهظة، ولا جديد في الحالة.

رجاء على نفس حالتها، لا تتكلم أبدا، ولا تعي شيئا من حولها.

بعد مرور الأسبوع، ونفاد المال الذي كانت تحمله، ألحت أم رحمة على إدارة المشفى أن تفعل شيئا حاسما في حالة ابنتها.

فلا جديد مطلقا، والمال قد نفد منها.

تخبرها إدارة المشفى أن مجموعة الأطباء الذين يتابعون الحالة سيجتمعون الليلة من أجل وضع تقريرهم النهائي.

تنتظر الأم إلى الليل، يأتيها أحد الأطباء، ويخبرها بالفاجعة.

يقول الطبيب: هذا هو التقرير النهائي عن حالة ابنتك.

تقول الأم: أنا لا أقرأ، أخبرني بما فيه.

يسكت الطبيب قليلا ثم يقول:

الحالة سيئة جدا، ابنتك تعرضت لصدمة عصبية كبيرة، أحدثت خللا كبيرا في جهازها العصبي والحيوي.

تقول الأم: وماذا بعد؟!

يقول الطبيب: كما ترين، الأدوية لا تفعل شيئا.

ثم يسكت قليلا ويقول: ويبدو أنها لن تفعل.

الأم مصدومة صارخة: كيف؟!

الطبيب: هوني عليكِ، واصبري، هذه قضاء الله.

الأم: لا أمل مطلقا؟!.

يحاول الطبيب أن يفهمها الأمر

يقول: الجهاز العصبي يشبه أسلاكا متشابكة ومنتشرة في كل أنحاء الجسم، وفي هذه الأسلاك أسلاك رئيسية وأسلاك فرعية،

والصدمات العصبية الكبيرة تقطع بعضا من هذه الأسلاك، والمصيبة أن تقطع الصدمات أسلاكا رئيسية، وهذا ما حدث لابنتك، أو ما يشبهه.

الأم: أتقصد أن ابنتي ستظل هكذا؟

الطبيب: في الغالب، نعم

لكننا سنكتب لها بعضا من الأدوية المساعدة، لعل الله يحدث بعد ذلك شيئا، والأمر كله بيد الله.

الأم باكية: إذا كانت أدويتكم لم تفعل شيئا هنا، فكيف ستفعل هناك.

الطبيب: لا نريد أن نقطع رجاءك.

الأم: لقد انقطع منذ زمان، ما عاد غير الصبر.

الطبيب: لم تعد الحالة بحاجة للبقاء في المشفى، ولكم أن تذهبوا.

تأخذ المرأة ابنتها وتذهب.

تعود بابنتها الخرساء غير الواعية.

تعود لبيتها وبناتها.

لم يبق لها من البنات إلا هؤلاء الثلاث، ومنهن هذه البنت التي ما عادت تتكلم ولا تعي شيئا.

وقد باعت جاموستها وحمارها.

وازداد الفقر، واشتد الحزن.

ومرت الأيام، والشهور، والسنون.

* * *

رضا

كبرت البنات.

أصبحت شابات، قد اكتملت أجسادهن، وهن الآن في سن الزواج.

حتى أن رجاء، البنت التي لا تكلم ولا تعي، قد كبرت أيضا، وأصبح جسدها جسد شابة ناضجة .

حرص الأم على بناتها يزداد الآن ويزداد.

وكذلك همها، فالفقر شديد، والحاجة كبيرة، وزواج البنات يحتاج إلى مال.

كم تود الأم أن تزوج بناتها..

ليس للبنات عم إلا عمهن الوحيد الذي كان يقوم على أمرهن بعد وفاة أبيهن.

له من البنين اثنان.

شَرَف، الولد الكبير، ولقد أصبح رجلا شابا.

وشاذلي وهو الولد الثاني، ولقد أصبح رجلا شابا هو الآخر.

في يوم جاء شرف إلى بيت عمه بعد صلاة العشاء، طرق الباب ونادى، فهمت إليه امرأة عمه وفتحت له.

وأدخلته مرحبة به.

جلس شرف في ناحية البيت، وجلست قريبا منه أم رحمة وبجوارها رحمة ورجاء.

ولقد قامت رضا لتأتيه بالشاي.

شرف: كيف حالكم يا امرأة عمي.

أم رحمه: الحمد لله بخير.

_ وكيف حال البنات.

... بخير والحمد لله.

_ لقد أتيتك يا امرأة عمي في أمر هام.

... وما هو؟

_ أرجو أن تسمع رضا له.

بدأت أم رحمة تفطن بعض الشيء لمراد شرف.

تأتي رضا بالشاي وتجلس إلى جوار أخواتها.

يكمل شرف حديثه:

_ لقد أتيتكِ يا امرأة عمي لأطلب منك الزواج برضا.

تنظر المرأة إليه ثم تقول:

... خيرا إن شاء الله.

ثم تنظر لرضا بجوارها، وكانت البنت قد علقت نظرها بالأرض خجلة.

تقول أم رحمة:

... الأمر لك يا رضا.

ينظر شرف إليها وينتظر جوابها، فلا تجيب.

تبادرها أمها: قولي رأيك،

يبدو أن خجلها قد عقد لسانها

فلتتركنا إلى الغد يا شرف، حتى تخبرنا رضا برأيها.

شرف:

_ إذن، آتيكم في الغد بإذن الله

وآخذ منكم الرأي النهائي.

أم رحمة: بإذن الله

يقوم شرف ويخرج من باب البيت مسلما:

... السلام عليكم.

شرف منضبط مستقيم، غير أنه غليظ القلب شديد الطبع.

في طبعه غلظة، وفي وجهه ملامح متحجرة، يكاد لا يعرف الابتسام له طريقا.

لكن أم رحمة تتمنى أن لو زوجت بناتها، حتى تطمئن لحالهن.

وشرف ابن عمهن، وهو أولى بهن، جريا على عادة أهل القرية، بل وجريا على عادة أهل الريف جميعا.

تجلس أم رحمة مع بناتها بعد مغادرة شرف.

تتوجه بالحديث لرضا، تريد أن تعلم رأيها.

ورضا على حالها من الخجل، لكنها تخبر أمها أنه لا مانع لديها من الزواج بشرف.

في الليلة التالية، يأتي شرف ومعه أخوه شاذلي.

رحبت بهم أم رحمة، وأجلستهم، وجلست هي وبناتها.

بدأ شرف بالحديث:

_ خيرا يا امرأة عمي، كيف هو رأي رضا.

أم رحمة:

... على بركة الله، هي موافقة بإذن الله، ولن تجد أفضل منك، ابن عمها، أهلها وسندها.

شرف:

_ الحمد لله، ولقد جئناك أنا وشاذلي في أمر آخر.

أم رحمة:

... وما هو؟

_ لقد جاء شاذلي ليطلب منك يد رحمة، ويكون الفرح فرحين، فرحي أنا ورضا، وفرح شاذلي ورحمة.

شاذلي شاب مختلف عن شرف، ليس فيه غلظة شرف ولا جموده، ولا انضباطه واستقامته.

هو شاب يميل إلى اللهو والنَزَق.

يشرب الخمر إن وجدها، ويذهب وراء الراقصات إن علم بهن، ويتردد على بيوت العاهرات ما أمكنه، وما ملك المال المطلوب لذلك.

أم رحمة تنظر إلى شاذلي ثم تنظر إلى رحمة وتقول: ولكن.....

يقطع عليها شرف كلامها:

أنا أعلم يا امرأة عمي أنكم ستعترضون على سلوك شاذلي وسيره،

غير أني أتعهد لكم، ويتعهد لكم هو أيضا، بأن يستقيم وأن يتغير،
الأمر يا امرأة عمي لا يعدو كونه شابا، وللشباب طيشه ونزقه،
وهذا الطيش سينتهي بعد الزواج بإذن الله.
تصمت أم رحمة قليلا ثم تقول: إذن ننتظر إلى الغد مرة أخرى، لننظر في رأي رحمة.
يقوم شرف ومعه شاذلي الذي لم يتحدث مطلقا، ويخرجان، على وعد بالعودة في الليلة المقبلة.
تجلس أم رحمة مع بناتها، تتوجه بالحديث إلى رحمة: ما رأيك يا رحمة.
رحمة: لا أقبل أن أتزوج شاذلي يا أمي، هو رجل طائش، ولا أحب أن أتزوج رجلا بهذا الشكل وبهذه الكيفية.
الأم: لكنه ابن عمك يا رحمة، ولن تجدي أحرص منه عليك .
وكما قال شرف، فإنه سيستقيم بعد زواجه، ولن يعدو الأمر طيشا ونزقا لشاب مثل بقية الشباب.
رحمة: ولماذا لا يكون مثل أخيه شرف، مستقيم ومنضبط.
الأم: لكنه قاس غليظ، وهكذا هي الدنيا، ما تم فيها شيء أبدا، النقص أكبر عناوينها وألزم صفاتها.
رحمة: إن كنت تسأليني عن رأيي، فأنا أرفضه، والأمر إليك في النهاية يا أمي.
الأم: وأنا أرفضه من الباب الذي ترفضينه منه، وأقبله من باب آخر، كونه ابن عمك، وأقرب الناس إليك.

والباب الذي نرفضه منه باب من المحتمل أن يغلق.

إذن فالعقل والمنطق يقولان أن القبول به هو الأقرب للصواب من الرفض له.

ولا تنسي أنك وأختك ستكونان في بيت واحد، وستكونان سندا لبعضكما.

رحمة: الأمر وما تريدنه يا أمي.

الأم: على بركة الله.

يأتي في اليوم التالي شرف وشاذلي، فيدخلان، ويجلسان.

تخبرهما الأم بالموافقة، لكنها تشترط أن يعطي شاذلي المواثيق والعهود على التغيّر.

ينطق شاذلي لأول مرة: نعم، أقسم على ذلك.

ينطقها وهو متلعثم مضطرب، يخرج القسم من فيه وهو يحمل ألف معنى.

ترى أم رحمة اضطرابه وتلعثمه.

تفسر الأمر على أنه اضطراب وتلعثم مصدره الخجل والإحراج.

تتوجه بالحديث إلى شرف:

لكن، أنتم تعلمون ما هو الحال،

وكيف هو حالنا من بعد موت عمكما رحمه الله، ومن قبل موته أيضا.

لا نملك شيئا لنجهز البنات به.

شرف: نعلم يا امرأة عمي، ولا نريد شيئا، وحالكم هو حالنا، لا فارق يذكر،

كلنا في الحال سواء.

سنجهز بيتنا بما نستطيعه، ولا نريد منكم شيئا.

أم رحمة: ونحن سنجهز بما نستطيعه، ولا نستطيع الكثير.

شرف: على بركة الله.

أم رحمة: على بركة الله.

حال شرف وشاذلي لا يفرق كثيرا عن حال أم رحمة وبناتها.

الفقر حال الجميع، أهل القرية جميعا على نفس الحالة، مع تفاوت طفيف يقع ضمن الحالة نفسها.

لا يملك شرف وشاذلي إلا البيت البسيط الذي تركه له والدهم، وقطعة أرض لا تتجاوز العشرة قراريط، هي كل مالهم وثروتهم، يعيشون من خراج هذه الأرض، مع بعض البهائم التي يربونها.

نفس الحالة التي تعيشها أم رحمة والبنات، ولا يختلف الأمر إلا في أن هؤلاء يملكون بعض البهائم، وأم رحمة ما عادت تملك بهائما، منذ أن باعتها لعلاج أمل ورجاء.

يتفق الجميع على ميعاد الزواج.

يأتي اليوم الموعود، تذهب رضا ورحمة إلى بيت زوجيهما.

في نفس البيت، البيت البسيط البالي، المبني من الطوب اللبن، بيت ذو ثلاث حجرات مع حوش لمبيت البهائم.

تدخل رضا في حجرة، ورحمة في حجرة.

والحجرة الثالثة هي حجرة سيدة الدار.

أم شرف وشاذلي، وامرأة عم رضا ورحمة.

المرأة ذات الطبع القاسي والقلب المملوء حقدا وغلا من أم رحمة.

رغم كل ما حدث لأم رحمة في حياتها.

هكذا الحقد فإذا كان لكل داء دواء، فإن داء الحقد لا دواء له، داء أعيا المداوين وأعيا أدويتهم.

يدخل كل رجل بامرأته إلى حجرته.

يغلقون أبوابهم، وتعود أم رحمة وابنتها رجاء إلى بيتها.

تعود والدموع في عيونها، تغلق هي الأخرى عليها بابها، وتحتضن رجاء، البنت الشابة الخرساء غير العاقلة.

تحتضنها وتبكي.

من لك يا رجاء بعد موتي، أخواتك تزوجن، أما أنت فهمّك أثقل هم.

كيف سيكون حالك بعد موتي، كيف ستدبرين أمرك، لك الله يا بنيتي.

داخل الحجرة.

تجلس رضا وبجوارها زوجها شرف.

يشير إليها:

قومي واخلعي ملابسك.

رضا تجلس مرتبكة خجولة.

لا تنهض من مكانها ولا تتحرك، عينها على الأرض، وتلم عليها ثيابها وجسدها.

يقوم شرف ويبدأ في خلع ملابسه، فتستدير رضا إلى الجهة الأخرى.

ينتهي شرف من تبديل ملابسه، ملابس العرس البسيطة بملابس البيت الأبسط.

يستدير إلى ناحية رضا، فيجدها على حالها.

يتوجه إليها بحديث حاد:

ألم أطلب منك أن تغيري ملابسك.

عليك أن تضعي في اعتبارك أنني لا أحب أن أكرر كلامي مرتين.

أنت عروس نعم، لكن لا يعني هذا عندي مبالغة في التمنّع ومزايدة في ادعاء الخجل والحياء.

تنظر إليه رضا نظرة فيها كثير من الاستغراب والضيق من طريقته في الحديث.

يحدّ شرف لرضا من نظرته.

يقول: لا بد أن تعلمي طبعي من الآن، ولا بد أن تتكيفي معه.

تعود رضا ببصرها إلى الأرض.

يعود الرجل بأمره: قومي واخلعي ملابسك.

تقوم رضا إلى خلع ملابسها والغضب يملؤها.

يسرع شرف إليها، يحملها بين ذراعيه بقوة، ويرمي بها على السرير، ثم ينقض فوقها، ويدس أصابعه في أحشائها.

يندفع الدم بقوة منها، وتتألم صارخة.

يقوم شرف من عليها، وبنبرة قاطعة وحاسمة يقول لها: قومي ونظفي الدم، فإذا نظفتيه فأعلميني، حتى نكمل الأمر.

تقوم رضا من على السرير، تقوم والدم يلطخ ثيابها وجسدها والسرير من تحتها.

تقوم والدموع في عينيها، والصدمة تفجعها.

لقد كانت تعلم أن في شرف شدة وغلظة.

لكنها ما كانت تتخيل أن تكون غلظته إلى هذه الدرجة، وفي ليلة عرسها، إنه حيوان يتكلم، لا قلب له كقلب الشر، ولا يبتسم كما يبتسمون، ولا حتى يتحدث كما يتحدثون.

وفي حجرة أخرى تجلس رحمة كما جلست أختها، على نفس الحالة من الخجل والخوف.

أما شاذلي فهو على غير حالة أخيه تماما.

من ساعة أن دخل هو ورحمة إلى الحجرة وأغلقوا بابها، وضحكه لا يتوقف، وأحاديثه المازحة لا تنتهي.

لكن في حاله شيء من المبالغة .

تحس رحمة بذلك وتتوجه إليه بنظرات مستغرِبة ومستهجِنة.

يقوم شاذلي من مكانه، ويذهب لركن في الحجرة، ويخرج منه زجاجة .

ثم يتوجه بها إلى رحمة ويقول: هذه الزجاجة لها مفعول كمفعول السحر،

ونحتاجها في ليلتنا هذه، لقد شربت نصفها قبل ساعتين استعدادا، وها أنت ترين نتيجتها، هيا بنا لنشرب معا نصفها الباقي.

تعلم رحمة الآن أنها زجاجة خمر، تقوم من مكانها، وتتوجه بالحديث له: أبعد هذه الزجاجة عني، أستغفر الله العظيم، يبدو أني سأندم على زواجي بك، تغضب الله في أول ليلة لنا، وتشرب الخمر وهو من أشد المنكر.

أين عهودك ومواثيقك أمامي وأمام أمي وأمام أخيك، بأنك ستصلح حالك، وستبعد عن هذا الطيش.

وتهم بالحركة ناحية الباب، فيسرع شرف إليها، ويتوسل أن لا تخرج، وأن تغفر له، على وعد منه بأن لا يعود لمثل لذلك.

تضطر رحمة لتصديقه، وتتراجع عن خروجها، وهي تعرف أن في خروجها في هذه الليلة إشكال كبير، ومدعاة إلى القيل والقال عند الناس.

تعود رحمة إلى سريرها، يأتي شاذلي إلى جانبها، يلاطفها ويضاحكها، ثم ينقض عليها.

فلا يختلف أمره كثيرا عن أمر أخيه شرف.

ولا يختلف أمر رحمة كثيرا عن أمر أختها رضا.

تقوم والدماء على ملابسها وجسدها وفوق سريرها.

ويقوم شاذلي ضاحكا مائعا.

تأتي أم رحمة في الصباح ومعها ابنتها رجاء في صحبتها.

تدخل على بناتها، تحكي كل بنت لها عن ما حدث في ليلتها، تحكي وهي خجولة حزينة، تهون المرأة عليهما ببعض الكلمات.

وتقوم إلى زوجيهما، فتتحدث معهما في الأمر.

فيرد شرف بحدة على امرأة عمه، ويغضب لأن زوجته حدثت أمها في هذا الأمر.

في حين أن شاذلي يلاطف امرأة عمه، ويضاحكها، ويجزم لها أنه لن يعود إلى ذلك أبدا.

وأنها كانت ليلة عرس، وما يحدث فيها استثناء، ولن يتكرر مرة أخرى.

تقوم أم رحمة إلى بيتها.

وقد استقر في خلدها أن القادم لبناتها لن يكون خيرا.

لأنها أمام زوجين لبنتيها.

أحدهما قاس غليظ غاشم.

والآخر مائع عاهر كاذب.

تقوم أم رحمة إلى بيتها وهي تتمتم.

لا حول ولا قوة إلا بالله

الله المستعان.

وتستعد لفصل آخر من فصول قضاء الله وقدره.

رضا زوجة صالحة، طيّعة، تقوم على خدمة زوجها وأمه كأفضل ما تكون الخدمة.

غير أنها تعامل مع ذلك زوجا قاسي القلب، وأما له بلا قلب من الأساس.

كلما رأت أم شرف قسوة من ابنها على زوجته، حرضته على مزيد منها.

وكلما رأت من رضا خيرا، غيرت فيه وبدلت وحرفت، ونقلت لابنها حديثا كاذبا، يتهم رضا بالتقصير، و بتعاملها الفظ الغليظ معها.

ورحمة زوجة صالحة طيعة، تقوم على خدمة زوجها وأمه كأفضل ما تكون الخدمة.

غير أنها تعامل مع ذلك زوجا مائعا، وأما تعينه على ميوعته نكاية في زوجته .

كلما رأت المرأة من ابنها تصرفا فيه ميوعة ورعونة، وكلما رأت ضجرا من رحمة لذلك ورفضا له، وقفت المرأة في صف ابنها، وهاجمت رحمة، وصرخت فيها أن لا سلطان لامرأة على زوجها، وأن ابنها رجل، ولا أحد يستطيع محاسبته.

حقد المرأة على أم رحمة يضطرم في صدرها، وناره تشتعل وتحرق، وقد وجدت فرصتها في البنتين.

وهكذا تمر الأيام، والحال على ما هو عليه.

شرف وقسوته وغلظته.

وشاذلي وميوعته وعهره.

وأمهما القاسية الحاقدة.

تمر الأيام والشهور، لا تحمل رضا، فيزداد شرف قسوة وغلظة لذلك، وخصوصا لأن زوجة أخيه رحمة قد حملت.

يعيش الجميع في البيت الواحد.

يأكلون ويشربون معا.

يلحظ شرف في أكثر من موقف أن عيون شاذلي أخيه لا تترك جسد امرأته رضا، لا في جيئة ولا في ذهاب.

ولا يعرض شاذلي عن ذلك إلا إذا أحس برؤية أخيه له.

تلحظ أم شرف ذلك، لكنها تترك الأمور لتسير كما تسير.

رضا تعاني في ذلك، لكنها لا تستطيع أن تحادث زوجها في شيء من ذلك.

تقف غلظته وشدته حائلا أمام أي حوار عقلاني معه، كما أنها تخشى من ردة فعله تجاه أخيه.

في نفس الوقت، تعاني رضا من تلصص أحد الجيران عليها، كلما صعدت إلى سطح المنزل.

لكنها لا تستطيع أن تحادث زوجها لا في هذه ولا في تلك.

تعرض عن هذا وذاك، وتحفظ عليها نفسها، وتتصبر على حالها.

هي بنت عفيفة طاهرة كما أمها، وكذلك كل أخواتها.

حتى فرحة التي غادرت البيت منذ زمان، غادرته عفيفة طاهرة.

هكذا أبلغ أبو رحمة زوجته أم رحمة في رؤيا من رؤاه الكثيرة التي يأتيها فيها.

يوما يخرج شرف إلى الحقل، وتتبعه أمه.

رضا في حجرتها وحدها.

ورحمة فوق سطح المنزل لحاجة .

يدخل شاذلي على رضا حجرتها، يهم بالانقضاض عليها، تقوم رضا من مكانها، تذهب بعيدا في زاوية الحجرة، تطلب من شاذلي متوسلة أن يخرج، وإلا فإنها ستصرخ وستسمع رحمة.

كان شاذلي مخمورا، والمخمور لا عقل له، ولا أذن له.

يسرع ناحيتها، يمسكها بيديه، تخرج من بين يديه مسرعة إلى الجهة المقابلة.

لا يتوقف توسلها ولا تهديدها

وهو لا يتوقف عن نزقه وفجوره

ويستمر المشهد

من هذه الناحية لهذه الناحية، ومن هذه الزاوية لهذه الزاوية.

رضا تهرب وشاذلي يهاجم

توقن رضا أنه لن يفيق من سكرته إلا بقوة.

تأخذ طبقا موجودا في ناحية الحجرة، وتضربه على رأسه ضربة قوية.

يسقط شاذلي على الأرض مغشيا عليه.

تجلس رضا مجهدة مفزوعة

وبعد لملمة نفسها وبلع ريقها

تحاول جاهدة أن تفيقه، لكنه لا يفيق.

لا تجد مناصا من أن تنادي على رحمة.

فلو عاد شرف إلى البيت ورأى شاذلي على هذه الحالة في حجرته فستكون المصيبة الكبيرة.

تنادي رضا على رحمة صارخة.

تفزع رحمة، وتنزل إليها مسرعة.

تأخذها رضا بيديها باكية، وتدخل بها لحجرتها، لترى رحمة زوجها شاذلي على هذه الحالة.

تقف رحمة قليلا من الوقت مشدوهة.

تشرح لها رضا الأمر سريعا

ثم تطلب منها أن تساعدها على حمله إلى حجرته قبل أن يعود شرف.

تقوم رحمة لتساعد أختها وهي صامتة لا تتكلم.

يحملوه معا بصعوبة بالغة إلى الحجرة

يضعونه على سريره.

تنظر رحمة في عيون أختها الباكية

يستمر تلاقي العينين قليلا

ثم تحتضنها رحمة بقوة، تحتضنها وهي تبكي

يستمر المشهد قليلا.

ثم تخرج رضا مسرعة إلى حجرتها

لتعيد ترتيبها، حتى تمسح آثار المشهد الماضي.

تجلس رحمة في حجرتها

تجلس وتنظر إلى زوجها شاذلي

تجلس باكية، تتطلع إليه بنظرات فيها الكثير.

: ما لي ومالك أيها الأرعن التافه.

كنت في غنى عنك

كنت وأختي وأمي في غنى عنك

كنا في غنى عنك وعن أخيك وعن أمك.

أنت أرعن سفيه

وأخوك غليظ قاس

وأمك حرباء سوداء

لقد ظننا أننا عشنا الهم كله

وجرعنا المر كله

لكن يبدو أن همكم سيكون أكبر الهم

ومركم سيكون أمرّ المرّ

الله المستعان

ولا حول ولا قوة إلا به.

وتمر الأيام والليالي

ونظرات شاذلي وتطلعاته وملاحقاته لرضا لا تتوقف.

مستمر في غيه لا يتوقف، ولا تردعه توسلات رحمة إليه بأن يكف عن أختها، والسفيه تأخذه سفاهته إلى درك ما منه نجاة.

يوما، يتحدث شرف مع أمه في هذا الأمر.

لكن أمه الحاقدة الكاذبة، تصرخ في وجهه، وتدافع عن ابنها شاذلي، بل وتدعي على رضا بأنها هي التي تلاحق شاذلي بنظراتها وأفعالها، غير أن شاذلي يصدها حفاظا على عرض أخيه.

شرف غليظ قاس، لكنه يرى أن رضا شريفة صادقة، ولا يخرج منها مثل هذا السفه أبدا.

يرد شرف على أمه بقسوة .

ويقسم لأمه أن لا ينسى لها هذا أبدا، تدّعي كذبا على امرأته الشريفة المؤمنة من أجل أن تدافع عن ابنها الطائش العاهر، والتي تعرف هي ويعرف الجميع سفاهته.

يدخل شرف إلى حجرته، تحادثه رضا، تريد أن تعرف سبب غضبه الشديد الذي يبدو ظاهرا عليه، يرد عليها بقسوته المعهودة: لا دخل لك، ولا تسأليني عن شيء إلا إذا حدثتك أنا به.

تمر الأيام، يذهب شرف إلى الحقل ويجيء، لكن حديث أمه لا يفارقه، ويوما بعد يوم يتغير نظره فيه.

بعد أن كان يرفض حديث أمه رفضا قاطعا .

الآن بدأت تحدثه نفسه أن لا شيء مستحيل.

يقول في نفسه:

لا شيء مستحيل

شاذلي ضحوك لعوب

وأنا غليظ قاس.

ولعلها قد رأت عند شاذلي ما ليس عندي

واشتاقت بأنوثتها لمن يلاعبها ويضاحكها

ويحنو عليها

ما كنت أحنو عليها قط.

يعود إلى نفسه وإلى طبعه فيقول بغلظة:

ما هذا الذي أقوله

هل ألتمس لها العذر في خيانتي

المرأة الحرة الشريفة تبقى حرة شريفة

حتى وإن لم تر من زوجها حنوا ولا ضحكا ولا لعبا

تموت الحرة ولا تضحك بثديها

تموت الحرة ولا تلعب بثديها.

يوما كان شرف في حقله

والأفكار تكاد تذهب بعقله.

وليس أشد على الرجل الحر من أن يفكر في خيانة زوجته له.

يجلس على رأس حقله، يسبح بعقله هنا وهناك.

يقول في نفسه:

هل من الممكن أن تفعل رضا هذا.

لكني من المفروض أن أنظر بعقل وإنصاف.

أنا الآن أتهم الشريفة التي يظهر شرفها وتظهر عفتها للجميع.

وأبريء العاهر الذي يرى الجميع عهره وسفاهته.

وأنا لا أرى إلا نظرات من شاذلي لرضا

وأرى في نظراته الكثير والكثير

الكثير منه وليس منها.

لا أراها تبادله أي نظرات

حتى أني ألاحظ أنها تتعمد أن لا تلتفت إليه إن هو حادثها.

لكن..... هل تتعمد ذلك دفعا لسفاهته عنها

أم خجلا وحياء من أن تنظر في عيون عشيقها أمام زوجها.

آه، عشيقها، آه.

إلى هذا الحد.....

أجلس هنا، وأترك زوجتي لتذهب لحضن أخي.

سواء كان الأمر منها أو منه.

لا بد أن أقتلهما معا.

لكن من الظلم أن أقتل مظلوما.

لا بد أن أعرف إلى أين وصل الأمر بينهما.

فإن كان وصل إلى حد الزنا، فسأقتلهما معا.

وإذا كان الأمر ملاحقة من أحدهما للآخر، فسأقتل الملاحِق.

يسكت هنيهة..... يأخذ نفسا عميقا..... ثم يكمل:

نعم، ليس مستغربا أن تأتي رضا الفاحشة.

وما أمر أختها فرحة بالأمر الذي يُنسى.

لقد تركت البيت وهربت

وما كانت لتهرب لولا أنها قد أتت بفاحشة، ثم خافت أن يفتضح أمرها.

لا شيء مستحيل، لا شيء مستحيل.

يشد شرف على أنيابه، ثم يقوم مسرعا إلى المنزل، وفي عينيه شرر.

كانت رضا في هذا الوقت نفسه قد أفلتت من ملاحقة من ملاحقات شاذلي .

ثم صعدت بعدها لسطح المنزل، وقد أصبحت تجلس هناك كثيرا، بعيدا عن شاذلي وملاحقاته التي لا تتوقف.

تجلس هناك، تطعم الطيور وتتطلع إلى السماء داعية باكية.

يدخل شرف إلى البيت مسرعا.

تجلس أمه في صحن المنزل كعادتها.

يسألها شرف بغلظة: أين رضا.

تجيبه بمكر: على سطح المنزل

كعادتها كل يوم، لا تنزل من هناك

لا أدري ما أمرها، ولا ماذا تفعل هناك؟.

ينظر شرف إليها نظرة غاضبة

ثم يسرع إلى أعلى السطح.

كانت رضا في هذا الوقت قد خرجت لتوها من نوبة بكاء، وقد همت بالنزول إلى أسفل، لما رأت جارها السفيه يلاحقها بنظراته وإشاراته.

ثم توقفت لبرهة والتفتت إليه، وقررت أن تصده عن ما يفعله، حتى تقطع سفاهته التي لا تتوقف.

التفتت رضا للرجل، دققت في عينيه غاضبة متجهمة، ثم بصقت باتجاهه بكل قوتها، ووقفت لبرهة لترى رده.

وقف الرجل على سطحه والعار يكلله، استمرت نظرات رضا له، واستمر تسمره في مكانه ونظره لها لا يدري ماذا يفعل.

في هذه اللحظة، صعد شرف لسطح المنزل ورأى المشهد.

أسرع الجار هربا عندما رأى شرف.

ووقفت رضا في مكانها تتطلع لزوجها.

وقف شرف أمام رضا .

همت رضا بأن تشرح له ما حدث.

أشار لها قاطعا أن تتوقف عن الحديث.

أسرع نحوها، وضع يديه على كتفيها، ثم قبضها بشدة إليه، ثم دفعها بقوة

لتقع من على سطح المنزل، وتهوي إلى أسفل صحن البيت .

يسرع إليها، وتسرع أمه ورحمة كذلك، ويأتي شاذلي.

تنظر لهم رضا، والدماء تسيل من أنحاء جسدها.

تقول وهي تلفظ أنفاسها الاخيرة:

أما نحن، فقد كتب الله علينا الصبر، راضين بقضائه على كل حال، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم تخرج روحها مع أنفاسها الأخيرة.

تصرخ رحمه وتهوي على أختها، تحتضنها وتقبلها وتصرخ.

وتسرع أم شرف آخذة بيد ابنها، ثم تدفعه ليخرج خارج المنزل هاربا قبل أن يأتي العمدة وقوات الأمن.

ينادي المنادون على أم رحمة: أدركي ابنتك، لقد قتلها شاذلي.

تسرع أم رحمة إلى بيت رضا، تسرع وهي لا تدري من أمرها شيئا.

تصل أم رحمة إلى البيت، الناس متكدسون رجالا ونساء، تدفعهم فيندفعون يمنة ويسرة، حتى تصل إلى جثمان ابنتها الغارق في الدماء، ورحمة ما تزال على وضعها، منكبة على أختها تحتضنها وتبكي وتصرخ.

ترمي أم رحمة بجسدها على جسد ابنتها، تصرخ وتصرخ، تمسح دماءها بيديها، تتطلع للسماء، تصرخ وتبكي وهي تنادي: يا الله.

* * *

رحمة

تمر الأيام، وأم رحمة وابنتاها رحمة ورجاء في بيتهم.

منذ وفاة رضا ورحمة في بيت أمها. لا تريد أن تعود لشاذلي الذي كان سببا من الأسباب التي أدت إلى ما حدث لأختها رضا.

يوما يأتي شاذلي ويدخل على امرأة عمه وبناتها، أو بالأحرى ما تبقى من بناتها.

يسلم شاذلي، فتنظر إليه أم رحمه ولا ترد.

يشرع في الحديث ويقول: يا امرأة عمي

ليس لي ذنب فيما حدث

شاذلي كان معرفا بقسوته وغلظته

وأنا على غير ذلك تماما.

تنظر إليه رحمة وأمها، لم تكن رحمة قد أبلغت أمها بكل التفاصيل، فلم تخبرها بملاحقة شاذلي لأختها، ولا بمحاولة الاعتداء عليها.

تنظر أم رحمة إليه وتقول: وماذ تريد؟

يقول: أريد زوجتي .

تنظر أم رحمة إلى ابنتها وتقول: قومي يا ابنتي مع زوجك.

تقول رحمة: لا يا أمي، لا أريد أن أعود إليه، ولا أريد أن أدخل هذا البيت

مرة أخرى، يا أمي أنت لا تعلمين شيئا .

ومع إصرار رحمة على عدم الذهاب معه، ومع تكرارها لجملة

(يا أمي أنت لا تعلمين شيئا).

تقول أم رحمة: اتركها إذن يا شاذلي بعضا من الوقت، لعلها تفيق من صدمة أختها.

يبدو أن بقاءها هنا الآن هو الخير لها ولنا، بل ولك.

يخرج شاذلي من عندهم غاضبا يتأفف.

وتشرح رحمة لأمها كل التفاصيل التي غابت عنها.

بعد أيام يعود شاذلي

تواجهه أم رحمة بما عرفته

ينكر شاذلي ويتلجلج في حديثه

يجزم لأم رحمة أنه سيتغير بعد كل ما حدث

تقطع له أم رحمة أن رحمة لن تعود لداره مرة أخرى

وعليه أن يطلقها.

يخرج شاذلي بعد أن يصرخ في امرأة عمه:

لن أطلق رحمة أبدا

ولا مانع أن تبقى بجانبك

فالنساء كثيرات

أخرج من حضن هذه لكي أذهب لحضن تلك

ولتبق ابنتك بجانبك

لقد كفيتني مُؤنتها

وابني الذي في بطنها هو أمانة عندكم

ولن أطلقها

سلام عليكم.

يُظهر شاذلي في هذه اللحظة وجهه الشيطاني الذي طالما خبأه خلف ادعاءاته وعهوده بالتغير والاستقامة.

هو شيطان لن يتغير ولن يستقيم.

يخرج من عندهم

تنظر أم رحمة لبنتها، وتحتضنها، ثم تتوجه إليها بالحديث:

لا عليك يا ابنتي

الله المستعان.

أهم ما يعينك في هذه الحياة أن تنتظري ابنك

وأن تتصبري به على الدنيا.

لا تملك أم رحمة مالا لكي تذهب بابنتها للمحاكم لتطلب الطلاق من زوجها.

وفكرة طلاق المحاكم فكرة غير معهودة في مثل هذه البيئات.

تمر الأيام والليالي بأم رحمة وبنتيها.

وضعت رحمة ولدها، وقد كانوا يعرفون أنه ولد، لأنه تحرك في بطنها في شهوره الأولى، ومن خلال تجاربهم وخبراتهم، فإن الولد يتحرك باكرا في بطن

أمه، والبنت لا تتحرك إلا آخرا.

جاء شاذلي بعد غيابه الطويل، جاء لرؤية ابنه المولود، جاء بوجهه البغيض.

لم تستطع أم رحمة أن تمنعه من رؤية ابنه.

تحدث شاذلي مع امرأة عمه مرة أخرى في رجوع رحمة إليه، فقطعت عليه أم رحمه كلامه.

وأخبرته أن الأمر قد حسم وانتهى.

وأصر هو من طرفه على عدم طلاقها مهما طال الزمن.

وأخبرهم أنه سيأتي لرؤية ابنه بين الحين والحين، ولا يستطيع أحد منهم منعه، أخبرهم بذلك بشدة وغلظة.

واضطرت أم رحمه أن تقبل بهذا خوفا من حماقته وسفاهته، وهو من هو في حماقته وسفاهته.

ومرت الأيام والشهور والسنون.

أم رحمة تذهب لحقلها في كل صباح، وفي البيت تبقى ابنتاها رحمة ورجاء.

ومعهما ابن رحمه الصغير الذي بلغ من العمر ثلاث سنوات.

هذا الولد أضحى الشيء الوحيد الذي يخفف من وطأة الحياة القاسية على الجميع، أم رحمة، ورحمة، بل ورجاء التي غدت تلاعب الولد وتراقصه كبنت صغيرة تلاعب ولدا صغيرا.

عقلها كعقله، وجسدها جسد شابة ناضجة.

ليس شيء أشد على نساء هذا البيت الآن من دخول شاذلي عليهن كل حين

ليرى ابنه.

ثقيل يدخل عليهن، وثقيل يغادرهن، وجهه ثقيل، وحديثه ثقيل، ولا تخلوا تلميحاته من سفاهة وحقارة.

في يوم، يدخل شاذلي عليهن، يدخل بعد العصر مخمورا.

أم رحمه في حقلها كعادتها في مثل هذا الوقت.

ورحمة على سطح المنزل في بعض شأنها.

ورجاء تلاعب ابن أختها رحمة كعادتها.

طرق شاذلي الباب ففتحت له رجاء

سأل ابنه الصغير عن أمه فأخبره بأنها فوق السطح.

يجلس شاذلي بقرب ابنه، تستمر رجاء في ملاعبة الولد الصغير.

يحدّ شاذلي المخمور من نظرته إليها، يرى من جسدها ما يراه، يقوم إليها، يطلب من ابنه الصغير أن يذهب لينادي على أمه، ينقض عليها، يفض بكارتها ويعاشرها سريعا.

ثم يسرع بالفرار من البيت.

تنزل رحمة من أعلى، ترى أختها منزوية في ركن من أركان البيت، والدماء تلطخ أسفل ثيابها، وهي تبكي ولا تدري شيئا.

تصرخ رحمة صراخا شديدا، تحتضن أختها بقوة.

تأتي أم رحمه عند غروب الشمس، فترى الوضع على ما هو، رجاء جالسة والدموع في عينيها، ورحمة بجانبها تبكي حينا وتصرخ حينا.

تدخل أم رحمة، فتعلمها رحمة بما حدث، تنكب أم رحمة على ابنتها رجاء باكية صارخة، تحتضنها وتقبلها وتبكي وتصرخ.

ثم تهرول مسرعة إلى بيت شاذلي، تطرق الباب بقوة، تفتح لها أم شرف، تسرع إلى داخل المنزل، ترى شاذلي، تنقض عليه ضاربة بيديها بقوة وهي تصرخ فيه، أيها الشيطان.

لا يفعل شاذلي شيئا، غير أن يقف لها صامتا وهي تضربه.

تحاول أم شرف أن تبعدها عن ابنها.

تلتفت إليها أم رحمة وتصفعها صفعة قوية تسقطها أرضا، وتصرخ فيها: ما كان هذا الشيطان ليكون كذلك لولا أنه ابنك أيتها الشيطانة.

تخرج أم رحمة من هناك وهي لا تقدر على غير هذا.

تود أن لو تقتل شاذلي لكنها لا تستطيع، ولو أنها تستطيع فلن تفعل، ومن يبقى لبنتيها إن هي قتلته.

تعود أم رحمة إلى بيتها، تعود لبنتيها وقدر الله عليها.

وتمر بهم الأيام.

لقد أصبحث أثقل من أن تحتمل، وأبطأ من أن تمر.

شاذلي يعيش حياته كأن شيئا لم يحدث.

كأنه لم يكن سببا في قتل أخيه لزوجته .

ولم يغتصب رجاء البنت غير الواعية.

والطامة الأكبر، أن رجاء حملت منه، وآثار الحمل لم تظهر بعد عليها.

يعيش شاذلي كما يعيش، متنقلا بين بيوت العاهرات وجلسات السكر.
يبيع أرضه قيراطا بعد قيراط من أجل ذلك.
وأمه لا تستطيع أن تردعه.
وقد بدأت في حصد نتاج زرعها، بدأ شاذلي يتطاول عليها بالسباب، بل وبالضرب في بعض الأحيان.
في ليلة كان شاذلي مخمورا في بيت عاهرة من العاهرات.
وكان أن دخل عليهما أخو المرأة، ورآهما على حالهما.
فأمسك بشاذلي وأخذ يبرحه ضربا شديدا.
ولما أن اشتد على شاذلي الضرب، دفع الرجل دفعا شديدا، ثم أمسك بسكين وطعنه عدة طعنات، وفر هاربا.
تصرخ أخته صراخا شديدا.
يجتمع الأهل والجيران.
يخبرهم الرجل بما حدث وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.
يقوم إخوته وأبناء عمومته إلى أختهم فيقتلونها ذبحا بالسكين.
ثم يسرعون في أثر شاذلي، الذي كان قد ترك البلدة وفر هاربا خارجها، لأنه كان يعلم أن الرجل ميت لا محالة.
يذهب الرجال إلى بيته، يكسرون بابه، ويدخلون على أمه فيدفعونها، ثم يبحثون في البيت ويقلبونه رأسا على عقب.
لا يجدون شاذلي في النهاية، تحاول المرأة أن تدفعهم للخروج من بيتها.

يدفعها أحدهم بقوة، فتصطدم بالحائط وتسقط مغشيا عليها.

يقوم الرجال بإشعال النار في البيت ويخرجون.

تنتشر النار سريعا، وتحيط بالبيت من جميع جوانبه، وأم شرف في صحن البيت ملقاة على ظهرها، والنار تقترب منها، وتزداد لحظة بعد لحظة.

يسرع الرجال إلى بيت أم رحمه لعلهم يجدون شاذلي هناك عند زوجته.

يكسرون الباب، يدخلون على أم رحمة وابنتيها وابن رحمة الصغير.

يقلبون البيت كما فعلوا في بيت شاذلي.

تسألهم أم رحمة صارخة فلا يردون عليها.

ولما أن تأكدوا أن شاذلي غير موجود.

أشار أحدهم إلى الطفل الصغير وقال: هذا ابنه فاقتلوه.

ليس من عادة الناس أن يأخذوا ثاراتهم من أطفال صغار ولا من نساء.

ولكن الغضب كان قد أذهب عقولهم، فأسرعوا للطفل الصغير.

وأمسكوا به وذبحوه، ورحمة ورجاء وأمهما يصرخن، ولكن لا مجيب.

ثم يسرع الرجال بالخروج من المكان.

تحمل أم رحمة حفيدها وتضعه في حجرها وهو مذبوح، يسح الدم من رقبته، وقد فارق الحياة.

ورحمة تسقط مغشيا عليها قد فارقت الوعي من هول ما رأت.

ورجاء تجلس صارخة، تتكور في جنب من جوانب البيت، وتخبيء عينيها بيديها.

يدخل الجيران إلى المنزل.

يفزعهم المشهد، يصرخون ويبكون.

تفيق رحمة بعد وقت قصير، تفيق وتنظر إلى ابنها في حجر أمها.

ثم تغمض عينيها وتذهب في غيبوبة طويلة.

لم تستطع أن تتحمل الصدمة في ابنها.

لقد قالت لها أمها يوما: تصبري بابنك على الدنيا، ففيه رجاؤك وأملك.

وها قد ذهب أملها وانقطع رجاؤها، يعود الناس من تشييع ابن رحمة.

في مشهد حافل، اختلطت فيه دموع الناس بآهاتهم وحوقلاتهم.

ينفض المعزون في نهاية اليوم.

تجلس أم رحمة في صحن البيت وبجوارها ابنتها رحمة راقدة في غيبوبتها، لا هي حية ولا ميتة، ومعهما رجاء.

تجلس صامتة تنظر لبنتها وتبكي.

تقوم أم رحمة، تتوضأ، تجلس على سجادة الصلاة، بجانب رحمة الممدة.

تصلي ركعتين، تطيل في سجودها الأخير، تقترب منها ابنتها رجاء، تهزها، ثم تحتضنها باكية

البنت التي غاب عقلها وفي أحشائها طفل شاذلي.

* * *